أعلام الفقهاء والمحدثين

الإمام النووي

شيخ المحدّثين والفقهاء

إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عويضة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٦٠٢١٣٣ /٩٦١١/ ٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد، فقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بالقرآن الذي فيه نبأ ما قبلها، وخبر ما بعدها، وحكم ما بينها، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به ألسنة الضعفاء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به** ﴾ [سورة الجن: آية ١]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وجاء الإمام النووي رحمه الله، فجمع من كل علم من علوم الدين، والآداب والأحكام، وما يحتاج إليه الناس من أخبار الأولين والآخرين، وأمر بالاعتناء به وملازمة آدابه.

وقد صَرَفَ الشّيخ النووي أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل بالعلم، فكان رحمه الله لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد العشاء الآخرة، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السحر. وقد عاش خمساً وأربعين سنة، اشتغل منها بطلب العلم وتدوينه وتعليمه والعمل به ستاً وعشرين سنة، فكانت كلها في هذا الشأن، لذلك لم يتسع له الوقت للزواج، بل وهب عمره كلّه لله سبحانه وتعالى، وهذا الكتاب الذي بين يديك أيُّها المسلم الكريم يوضّح أخبار هذا العالم العلم ومنهجه في طلب العلم، وأوصاف حفظه وطلبته، وما جاء من سيرته وآدابه، رحم الله الإمام الترمذي رحمةً واسعة وأدخله فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء، إنه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

كامل محمد محمد عويضة

مصر ـ المنصورة ـ عزبة الشال

ش جامع نصر الإسلام

الفصل الأول

١ ـ عصر النووي السياسي
٢ ـ عصر النووي العلمي
٣ ـ عصر النووي الاجتماعي

١ ـ عصر النووي السياسي

عاش الإمام النووي رحمه الله تعالى عصرين من العصور السياسية، والذي لكل عصر منهما سمته السياسية، والتي ظهرت بالاستقرار والصراع العصبي ضد قوتا البغي والكفر: من الصليبيين والتتار، والذي كان لكل قوة منهما هدفه من الشرق، وأطماعه الاستعمارية، التي جاء من أجلها لهدم الإسلام واحتراق المسلمين، وإغلاق باب العلم في وجه الإسلام لنشر الجهل والخراب والدمار. فقد عاش الإمام النووي رحمه الله آخر عصر الأيوبيين وكل عصر الملك الظاهر بيبرس[١] من المماليك. ففي سنة ستمائة وست وخمسين أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى خليفة المسلمين، وقد انقضت بذلك دولة بني العباس[٢]، واستهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد على مقدمة سلطان التتار، هولاكو خان، وجاءت إليهم مساعدات من صاحب الموصل لتساعدهم على أهل بغداد مخافة التتار، وقد نصبت ببغداد المجانيق والعرادات وغيرها من الآلات المانعة التي لا ترد قدر الله، وكما ورد في الأثر: «لن يغني حذر من قدر»[٣] وكما قال تعالى:

---

(١) الملك الظاهر بيبرس سلطان المماليك.

(٢) أي أن هذه الدولة تنسب إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ.

(٣) رواه أحمد في المسند: ٥/ ٢٣٢.

﴿ **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر** ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾[٢]، وأحاطت قوات الظلم بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، حتى قتل الصبيان في دار الخلافة، وقد بلغت جنود هولاكو لعنه الله نحو مائتي ألف مقاتل، وقد وصل بغداد الآمنة بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وكانت الجيوش البغدادية حينئذ قليلة، لا تبلغ عشرة آلاف فارس، وكانت هذه القوات غير مستعدة لمقابلة جيش التتار الغاشم، فمعظم قوات المسلمين متفرقة فمنهم من بالمساجد، ومنهم بالمزارع والأسواق، وتدخلت الوسائط بين الخليفة وهولاكو، وطلب الوسيط من الخليفة أن يركع بين يدي هولاكو لعنه الله، وأن يجعل خراج الأرض مناصفة بين الخليفة وهولاكو، ويرى المؤرخون أنّه لم يؤرّخ أبشع من ذلك منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات، وقتل المسلمون، ونهبت الديار، وسرقت الخزائن، وأصبح الناس يستترون في الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، وقتلت الناس في المساجد، وجرت الدماء وأصبحت كالأنهار لا تجف، ولم ينج من الناس أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وسلبت أموال التجار، وأصبحت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة

---

(١) سورة نوح، آية: ٤.

(٢) سورة الرعد، آية: ١١.

وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من المائة ألف مقاتل، فلم يزل الوزير يجتهد في أمرهم حتى لم يبق منهم سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعدما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله رب العالمين العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. واستمر نزيف الدم أربعين يوماً، وقتل الخليفة المستنصر بالله يومئذ عن ستّ وأربعين سنة وأربعة أشهر، وقتل معه ابنه الأكبر أبو العباس أحمد، وقتل ابنه الأوسط عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك، وأسرت أخواته الثلاثة فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والله أعلم.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين[1] يوسف ابن الشيخ أبي

---

(١) أي «ابن الجوزي» رحمهما الله.

الفرج ابن الجوزي، وكان عدو الوزير[1]، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد، وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب به إلى مقبرة الخلال، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتلت الشيوخ والخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمي قبحه الله ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة[2] مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعَلَمهم بها وعليها، فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا والله أعلم بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو

---

(١) الوزير ابن العلقمي الرافضي قبحه الله، محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، الوزير مؤيد الدين أبو طالب بن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي. مات سنة ست وخمسين وستمائة.

(٢) الرّافضة: فرقة من الشِّيعة تُجيز الطَّعن في الصحابة سُمُّوا بذلك لأنهم رفضوا نُصح زَيد بن علي حين نهاهم عن الطعن في الشيخين أبي بكر وعمر.

وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، وقبل رحيل المسلط هولاكو خان عن بغداد في نفس السنة إلى مقر ملكه، فوض أمر بغداد إلى الأمير عليّ بهادر.

وقد ذكرت في كتابي «ابن تيمية[١] شيخ الإسلام»[٢] أن السلطان قطز سلطان سلطان مصر قد قتل رُسل التتار، وعلّق رؤوسهم على أبواب المدينة، وقام بحركة تمشيط للجيش المصري، وذلك بعدما حدث الذعر والاضطراب في صفوف المصريين، وساعد على ذلك الذعر هروب بعض أهل بغداد إلى مصر، وسرد حكاويهم إلى المصريين، بما فعل بهم التتار من نهب للأموال، وسبوا النساء والأطفال، فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة، كل هذا رجف قلوب المصريين، وبينما الناس على هذه الحال، فقد تواترت

(١) ابن تيمية شيخ الإسلام الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام. مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

(٢) كتاب مؤلف هذا الكتاب ـ طبعة دار الكتب العلمية.

الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو خان وجاوزوا الفرات على جسورٍ عملوها، ووصلوا إلى حلب وحاصروها سبعة أيام، ولكن سلطان مصر استطاع أن يهزم التتار في موقعة عين جالوت، وأن يخلص العرب والمسلمين من شر هؤلاء الطغاة، وأن يكتب للمسلمين العزة في شهر رمضان الكريم، وقد أقام الله للإسلام من يحفظه وسيظل للإسلام رب يحميه إلى أن تقوم الساعة. هذا مجمل للحياة السياسية في عصر النووي.

يا سبحان الله:

صدرت كتب مختلفة تتحدث عن التتار وما أحدثوه من فظائع دامية في تاريخ الأمة الإسلامية وجلها تبدأ بتاريخهم الأول منذ تجمعهم تحت قيادة جنكيز خان، ثم تقف عند هزيمتهم في معركة عين جالوت، وكان من الأنسب أن تختم بدراسة وافية لاعتناقهم الدين الإسلامي؟

وكيف تم ذلك في عصر لم تكن للإسلام فيه سطوة مادية تجبرهم على الإنقياد والإذعان، فقد كانوا في أكثر وقائعهم ظافرين منتصرين، ولكنهم أذعنوا طائعين لدين المقهورين المغلوبين. وتلك عجيبة العجائب، لأننا نعهد المغلوب ينطوي تحت لواء الغالب ويسير في تياره، إما أن يقدم الغالب عن طواعية إلى اعتناق دين تابعه، فتلك شهادة مثلى للإسلام، تؤكد أن مبادئَه القويمة تشق بمنطقها العادل طريقها الواضح إلى العقول المنصفة التي سلمت البصائر من الأهواء! وهي من ناحية أخرى برهان قوي يصفح من يزعمون أن الإسلام قد

انتشر عن طريق السيف!! ويدعوهم إلى أن يبحثوا مقومات هذا الدين القوي ليدركوا أسباب تفوقه النابعة من هديه المستقيم، وصراحه الحميد!

ولو أن الصراع الديني كان إذ ذاك بين ديانة التتار ودين الإسلام وحدهما، لقلنا إن فساد عقيدة التتار قد مكن للإسلام من الرسوخ إذ وجد الطريق خالية من مزاحم قوي عنيد! ولكن التاريخ يثبت أن الصراع آنئذ لم يكن بين الإسلام والوثنية وحدهما، ولكن المسيحية كانت تقف بأباطرتها وقساوسها، وطغيانها الصليبي مع الوثنية تجاه الإسلام؛ إذ تعاون الصليبيون مع التتار على حرب المسلمين ونهضت مصر المؤمنة تحت زعامة الظاهر بيبرس تحفظ كلمة الله في الناس، وتهب دماء أبنائها رخيصة هينة في ذات الله! وقد اهتبل البابا إنوسنت الرابع طغيان التتار على بلاد الإسلام ليجعل منه سلاحاً جديداً يسهم معه في إبادة الإسلام، فأخذ يرسل سفراءه إلى ملوك المغول مظهراً عواطف الود والتقدير، بل إن ملك أرمينية المسيحي هيتون كان المحرض الأول على إرسال حملة هولاكو إلى بغداد، وقد ظن بعد سقوطها الرهيب أن أيام الإسلام في الشام ومصر معدودات، وانطلق النسطوريون في ربوع فارس يبشرون بالمسيحية متذرعين بحماية حلفائهم من رؤوس التتار، وكان لويس التاسع من قبل ذلك يرسل مندوبه وليم ووبرك إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده في نشر المسيحية واهماً أنه قاب قوسين أو أدنى من تنصير المغول. . . ولكن الإسلام في سواد هذه المحنة يتألق ويستفيض، وتكون له الكلمة الأولى في مغول القبيلة الذهبية بالقفجاق، ثم الكلمة الأخيرة في مغول

فارس أعدائه الألداء ويأبى الله إلا أن يتم نوره. قال السير توماس أرنولد نقلاً عن ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وزملائه في كتاب الدعوة إلى الإسلام بتصرف يسير:

«لا يعرف الإسلام بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة».

على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد، واستطاع بوساطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين، ويحملهم على إعتاقه، ويرجع الفضل في ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما: المسيحية والبوذية.

وسوف نقتصر على أول مغولي اعتنق الإسلام طواعية واختياراً بعد أن درسه دراسة بصيرة، فكان إسلامه في سلطانه وبيئته وظروف عصره دليلاً على أن الإسلام دين الفطرة الخالصة تهتدي إليه النفوس البريئة متى سلمت من أدران التعصب والجمود، فقد كان الملك بركة خان عاهل القبيلة الذهبية دائب التفكير فيما يعتنقه قومه من أوهام مقدسة لا تنهض على دليل، فالشامانية وهي دين المغول القديم تعترف بإله عظيم قادر، ولكنه ينفرد في عزلته تاركاً أمر الكون إلى مجموعة من الآلهة الشريرة ذات القدرة على الإيذاء والقمع، ويمكن أن تكف عن إيذائها بعض الشيء إذا تقدم إليها سيل من دماء الضحايا والقرابين بين الحين والحين، وكان السحرة من مدعي الطب والشعوذة هم رجال هذا الدين ممن يقودون النفوس بسيطرتهم الروحية وفق ما تمليه

شهواتهم الطامعة! ولهم في أرواح الموتى اعتقاد بعيد النفاذ فهي في أيديهم كما يدعون يرمون بها إلى من يشذ عن تقديسهم أو يتخلف عن أداء الضرائب المتوالية من المال والحيوان والدم أحياناً، ودين كهذا الدين لا يثبت للنقد لدى الباحث المتجرد، ولكنه عند أتباعه ممن توارثوه أحقاباً متطاولة يحتل مكاناً راسخاً لا تزعزعه الشكوك!! إلا عند من له قلب ذكي يجتلي الحقائق الخالصة في ليل حالك الظلمات! وقد كان بركة خان صاحب هذا القلب الذكي الحصيف، إذ أخذ يتضايق كثيراً بما يزاول قومه من طقوس وعبادات ثم اهتدى إلى بعض شيوخ الإسلام ممن يقومون بالدعوة إلى الله ابتغاء مرضاته، فاستمع إليه طويلاً، وترجمت له آيات الذكر وأحاديث الرسول وسير الصحابة الفاتحين فشعر باستجابة قوية إلى ما يسمع، ولكنه تريث كثيراً حتى دعا إليه أعلام الإسلام في فارس، فأم ساحته أفذاذ من العلماء أمثال نجم الدين كبري الصوفي الأشهر وتلميذه سيف الدين الباخرزي، وقطب الدين الرازي وسواهم ممن أخلصوا لله في واجبهم الأقدس فاستطاعوا أن يجلوا محاسن الإسلام ساطعة وضاءة في عين الملك، وحين اطمأن قلبه إلى دينه بادر بالدعوة إليه في مملكته فأجابه فريق، ونشز فريق آخر ممن ثبتوا على دين آبائهم، وكادت تقوم حرب أهلية في مملكته المتحدة لولا حزمه الصارم فقد تهدد المخالفين فاستكان من استكان، ورحل من رحل إلى مملكة ابن عمه هولاكو.

ومهما يكن من شيء فقد أسلم الرجل عن اعتقاد وفحص، فجاء إيمانه ركناً مكيناً، لا تحيط به الشكوك، ولولا ذلك ما دافع عنه معارضيه في حمية واتقاد!!

لم يدرس «بركة خان» الإسلام وحده حين هم بتغيير دينه الأول، ولكنه التفت إلى البوذية والمسيحية التفات الباحث المختبر فوجد الديانة الأولى لا تحمل عناصر البقاء في رأيه، أما المسيحية فقد كان سلوك المسيحيين أنفسهم مما يشيح به عن اتباعها، إذ إن الخلافات بين المسيحيين واللاتينيين والإغريق والنسطورين والأرمن قد امتدت إلى عسكر المغول وشاهد الملك من التناحر المذهبي بين الفرق المتصارعة ما بغّض إليه ما يعتقدون ويقول المستر ت. و. أرنولد في كتاب الدعوة إلى الإسلام ناسباً قوله إلى وليم روبرك ص ١٩٣ عن النسطوريين في بلاد الصين مما يجاور المغول: «إنهم كانوا شديدي الجهل لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم المدونة بالسريانية كما يرميهم بالفسق والخمر والجشع، وكانت قساوستهم يتجرون بالمناصب الدينية، ولا يبالون بجمع الثروات من وراء طقوس الكنيسة ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم المسيح».

وطبيعي أن ينصرف الملك عن دين تتلاعن طوائفه وتتناحر، مكفرة بعضها البعض، ثم يتكالب قساوسته على المادة متباغضين متنازعين، ليبحث عن دين يحترمه أتباعه ويفتدونه بالأرواح مخلصين!!

وآية العجب في بركة خان حقاً أن الإسلام قد خلقه خلقاً جديداً، إذ نشأ في بيئة تعتنق تعاليم «الياساق» وهو الدستور الدموي على أيدي التتار، فجعل من القتل والإحراق والإبادة والهدم والتخريب وسائل مشروعة لا يختلف فيها اثنان، فهي حق التتار وحدهم يزاولونه دون تأنيب أو تأثيم، وما تزال كلمة هذا الطاغية السفاح تدوي في آذان أبنائه وأتباعه: «إنني نقمة الله على الأرض ولا بد أن الناس يستحقون

العقاب، لأن الله قد ساقني إليهم»!!

أجل كانت تعاليم «جنكيز خان» أهم المعتقدات التي تلقنها «بركة خان» في صغره، كما تلقنها ابن عمه «هولاكو» سواء بسواء، وبتأثيرها المجرم... صارت «هراة» وبخارى، وسمرقند، وبلخ» وغيرها من أمهات مدن آسيا الوسطى خرائب تنعق فيها الغربان.

حتى اضطر ابن الأثير أن يقول وقلبه يتميز من الغيظ: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً»!!

هذه المعتقدات الحمراء وجدت من روح الإسلام في نفس «بركة خان» ما عصف بها عصف الرياح بالهشيم، فانقلب الرجل منذ اعتنق الشريعة المحمدية إنساناً كاملاً ذا خلق وقلب، ولو كتب الله عليه أن يحتجب عن نور الإسلام لأصبح مثل ابن عمه الطاغية الرهيب، بل أن اختلافهما في العقيدة قد عجل بوقوع الحرب بينهما، وهذا أمر متوقع لا غرابة فيه، فقد اكتسح الجبار الآثم عاصمة الخلافة العباسية وألحق بغداد بمثيلتها من عواصم فارس، فأصبحت خرائب دارسة تبكي الحضارة الغاربة والمجد الذاهب، وتعرض الإسلام حينئذ لمحنته الكبرى حين أخذ الشيخ الرهيب يزحف إلى ديار الشام ومصر، وجاءت الأنباء الدامية إلى بركة خان، فهاله أن تسقط الخلافة ويقتل أمير المؤمنين في هوان ذليل، فجاهر بعداء ابن عمه وأمر أتباعه الذين كانوا بين جيشه الزاحف بالانسحاب من مؤازرته، فتوجهوا إلى مصر

معلنين إسلامهم، واستقبلهم الملك الظاهر بيبرس استقبال المغتبط المشكور، ولا مناص من أن نتعرض هنا إلى العلاقة بين البطلين الكبيرين بركة خان والظاهر بيبرس؛ لتدرك نعمة الإسلام في تأليف القلوب واجتماع الشمل: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. . . »[١].

لقد تحالف «هولاكو» مع الصليبيين على بعد ما بينهما من العقيدة ليقفا معاً أمام جيوش الإسلام في مصر والشام، وتدبر الظاهر موقفه الضائق ثم جاءته جنود بركة خان تعلن إسلام العاهل وإيمان الشرعية، فلم تفته الفرصة، وأقام مشهداً حافلاً في يوم مجموع له الناس، ثم أعلن بقاء الخلافة العباسية، وانتقالها إلى مصر إذ قدم إليها أحد أمراء بني العباس، فبايعه السلطان ـ كما يقول القاضي ابن عبد الظاهر كاتب بيبرس ـ بعد ثبوت نسبه عند قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وبايعه الأمراء والعامة والتتار الواصلون ثم اجتمع الرسل بالخليفة والسلطان وحملهم السلطان من المشافهة ما فيه صلاح الإسلام وعرف أصحابه التتار أحوال عساكره وكثرتها وما هو بصدده من جهاد وما يبذله من الأموال في نصرة الدين وقتال الأعداء المشركين».

ورنت الأعداء في سمع بركة خان فسر بها سروراً عظيماً، وبادر بتلبية الظاهر فخط إليه كتاباً مخلصاً قال فيه: فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي من دمي ولحمي (كذا) لإعلاء دين الله تعصباً

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

لدين الإسلام لأنه باغ، والباغي كافر بالله ورسوله، وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم لأنه كان حاضراً في الموقعة ليحكي للسلطان ما رآه بعينيه من عجائب القتال، ثم ليوضح له أنه موفق للخير والسعادات لأنه أقام إماماً من آل العباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك».

هذه المعاهدة الشريفة بين الرجلين أراحت الإسلام من شر كثير، حيث قسمت جيش هولاكو إلى قسمين، قسم يقف أمام جنود بركة بين حدود الجفقاق وفارس، وقسم ينازله الظاهر على سواحل الفرات، وهي في لبابها معاهدة إسلامية تقوم على العقيدة الحرة في نصرة الحق ومنازلة الطغيان.

ويقول بعض المؤرخين بأن بركة خان قد نازل ابن عمه لاعتدائه على بعض مواقع مملكته ومنعه من نصيبه في أسلوب الغزو والقتال، وقد يكون هذان الحادثان من أسباب العداء بين ملك يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وطاغية لا يذر من شيء يأتي عليه! ولسنا نستنبط ذلك استنباطاً، يقوم على الاستنتاج العقلي وحده، بل نلجأ إلى النص الصريح من كتاب بركة إلى الظاهر إذ يقول فيه: «فليعلم السلطان أنني حاربت هولاكو الذي من دمي ولحمي لإعلان كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام لأنه باغ».

ولما كان مغول الجفقاق في حاجة إلى من يرشدهم إلى تعاليم الإسلام فقد حرص «بركة خان» أن يستقدم إليه علماء الشريعة في شتى الأقطار، وأكثر من المساجد والمعاهد، وتسامع ذوو العلم فأمه أفذاذ

الفقهاء من كل صوب، حتى علماء العربية في النحو والبلاغة والصرف قد وجدوا لديه على غير معرفة بالعربية ملاذاً كريماً لأنهم في رأيه دعاة يخدمون لغة القرآن، وكان لهم من المكانة ما لعلماء الفقه والتفسير والحديث، حتى قال ابن عربشاه عن عاصمة بلادي سراي: «إنها صارت بواسطة هؤلاء السادات مجمع العلم ومعدن السعادات، واجتمع فيها من العلماء والظرفاء والأدباء والفضلاء، ومن كل صاحب فضيلة وخصلة نبيلة جميلة ما لم يجتمع في سواها ولا في جامع مصر ولا في قراها».

والجملة الأخيرة لا تخلو من مبالغة طريفة فمصر في العصر المملوكي كانت المركز الأول للثقافة الإسلامية فإذا استطاعت سراي أن تقرن بها في رأي ابن عربشاه فذلك فضل كبير ناشئة ذات عهد جديد بدينها الحنيف!

وقد رجع رسل «الظاهر بيبرس» من حاضرة «بركة خان» يثنون ويعظمون ويذكرون أن لكل أمير من أمراء الملك مؤذناً وإماماً، ولكل خاتون أيضاً مؤذن وإمام، وأن مكاتب الأطفال منتشرة دائبة في تحفيظ القرآن واستظهاره، وأن عالماً مصرياً من الفيوم يعيش في حاشية الملك الكبير.

إن الرابطة الإسلامية أقوى الروابط وآكدها بين أبناء الأمة الإسلامية وإن ارتباط بركة خان في الجفقاق بسياسة الظاهر بيبرس في مصر ليؤكد أن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، وصدق رسول الله.

٢ ـ عصر النووي العلمي

تميّز عصر الإمام النووي رحمه الله تعالى بأنه عصر نهضة علمية وحركة إسلامية متّسعة، نبغ فيه العلماء، وقطفوا من كل بستان زهرة. حتى إنه قد بنى في هذا العصر عديداً من مختلف المدارس العلمية والتي لم يبن مثلها في عصر من العصور السابقة. فقد تم في هذا العصر تكميل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم يُبن قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ للحديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ للطب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد. وقد قام بفتح هذه المدرسة الخليفة المستنصر بالله[١] بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والصوفية والشعراء، ولم يتخلف أحد من هؤلاء، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحمل منه إلى جميع بيوتات الخواص والعوام وإلى سائر دروب بغداد، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يوم الافتتاح هذا يوماً مشهوداً، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقدّر أستاذ عظيم للتدريس في كل مذهب من مذاهب الفقه، وقد كان من نصيب الفقه الشافعي

---

(١) ذكر ابن كثير توليته للخلافة: ١٣/ ٢٣٢. وذكر توليته للخلافة بعد وفاة والده الظاهر سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

الإمام العالم محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي. ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها، وجودة الكتب الموقوفة بها. وقد كانت ملوك بني أيوب كالكامل يكرمون العلماء. وظهرت جماعة عظيمة من الشعراء مثل الحاجري[١] الشاعر، وقد ذكر له ابن خلكان[٢]، وذكر له أشعار كثيرة، ونذكر منها أبيات وهو يستوحش أخيه ضياء الدين عيسى:

الله يعلــم مــا أبقــى ســوى رمــق
منــي فــراقــك يــا مــن قــربــه الأمــل
فــابعــث كتــابــك واستــودعــه تعــزيــه
فــربمــا مــت شــوقــاً قبــل مــا يصــل

وقد اهتم الملوك ببناء المدارس بمصر لتعليم الطلاب فروع وأصول العلم المختلفة، واهتم العلماء بتدريس النحو، وظهرت طائفة من العلماء يقومون بتعليم العربية وتحفيظ المفصل والإيضاح والتكملة والعروض والحساب، ودرست المعقولات والمنطق والحكمة، ورحل الطلاب من بقاع الأرض يبتغون العلم في جوانبها من كل مكان.

وفي عصر الإمام النووي رحمه الله ظهر صاحب الفتوحات المكية

---

(١) ترجم له ابن كثير في البداية والنهاية: ١٣/ ١١٢.

(٢) ابن خلكان هو: قاضي القضاة، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان. توفي سنة ٦٨١ هـ.

محيي الدين بن عربي، وقد بلغ هذا الكتاب في نحو عشرين مجلداً، فيها ما يعقل وما لا يعقل، وما ينكر وما لا ينكر، وما يعرف وما لا يعرف، ولمحيي الدين كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، وله أشعار كثيرة، وطريقاً خاصاً نهج فيه طريقه إلى التصوف، وكان عالماً بالكيمياء. وقد ظهر في عصر النووي رحمه الله كثير من العلماء الذين طافوا البلدان يطلبون العلم في كل مكان، وظهرت الرحلات العلمية بين الدول الإسلامية لمجالسة الشيوخ والعلماء. وظهر في الحكمة والطب الأديب الطبيب ابن أبي أصيبعة[1]، وظهر من المؤرخين تاج الدين[2] أبو عبد الله بن عمر بن حمويه، وله كتاب في ثماني مجلدات، ذكر فيه أصول، وله السياسة الملوكية صنفها للكامل محمد وغير ذلك. وظهر من العلماء الأفذاذ الذين ملأوا الأرض علماً الحافظ ضياء الدين[3] المقدسي الذي طاف البلاد، وألّف كتباً كثيرة الفوائد حسنة، من ذلك كتاب الأحكام ولم يتمه، وكتاب المختارة وفيه علوم حسنة حديثية، وهي أجود من مستدرك الحاكم لو كمل، وله كتاب فضائل الأعمال جمّع أحاديثه من المتّفق عليه، وقمت بفضل الله بشرحه سنة ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين ميلادية، وبعد وفاة والدي المغفور له الشيخ محمد محمد

---

(١) ابن أبي أصيبعة هو: موفق الدين، أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، السعدي الخزرجي. توفي سنة ٦٦٨ هـ.

(٢) وهو أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين، له كتاب في ثمان مجلدات. ترجمته في البداية والنهاية: ١٣/ ١٦٥.

(٣) ضياء الدين المقدسي ابن الحافظ محمد بن عبد الواحد، سمع الحديث الكثير وكتب كثيراً وطوف وجمع وصنف. البداية والنهاية: ١٣/ ١٦٩.

عويضة، وكان ذلك بعد وفاته بأيام وكأن يدي لم تجف من غسله وقتئذٍ، وقد قدّمت هذا الكتاب للأستاذ غياث ابن الشيخ قصي بن محب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية بمنيل الروضة لطباعته.

وللمقدسي كتب غير ذلك، وقد وقف كتباً كثيرة عظيمة لخزانة المدرسة الضيائية التي وقفها على أصحابهم من المحدثين والفقهاء.

ومن جملة هؤلاء الأفذاذ الشيخ مجد الدين بن تيمية صاحب الأحكام، وهو جد الشيخ تقي الدين بن تيمية، والذي برع في الحديث والفقه، ودرّس وأفتى وانتفع به الطلبة المسلمين من كل مكان. ومن بين هؤلاء ظهر الفذ ابن عبد السلام الذي لُقّب بسلطان العلماء، والذي برع في المذهب الشافعي، وصنّف الكتب الحسان، ودرّس بعدة مدارس بدمشق، وولي خطابتها، ثم سافر إلى مصر ودرّس بها وخطب وحكم، وأصبح رئيساً للشافعية، وسافرت فتاويه إلى دنيا الآفاق ليتعلم منها القاصي والداني، وقد ظهر في عصر الإمام النووي رحمه الله طائفة من الملوك الكرام الذين يحبون العلماء والصالحين، وأرسل الملوك العطايا من الذهب والفضة إلى الفقهاء والعلماء، ليسهّلوا لهم العيش، وليتفرغوا لعلمهم ودروسهم للطلاب، وفي هذه الحياة المرنة التي وسّع أفقها الملوك ظهر عبد الحق بن إبراهيم بن محمد المسمى «بابن سبعين»[1]، وظهرت فلسفته التي وُلدت امتداداً لفلسفة الأوائل، ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم.

ومن العلماء المصنفين الذين وصل إلينا علمهم، وسوف يظل هذا

---

(١) ابن سبعين هو: عبد الحق بن إبراهيم بن محمد أبو محمد المقدسي الرقوطي. توفي سنة تسع وستين وستمائة. البداية والنهاية: ١٣/ ٢٦١.

العلم خالداً ما دامت السموات والأرض ابن مالك[1] النحوي الكبير صاحب الألفية المشهورة المفيدة، والتي من درسها أصبح سيلاً لا يتوقف في علم النحو، وسهلت له كل شيء. هذه حفنة من العلماء الذين ظهروا في عصر الإمام النووي، والذين جلسوا وأفادوا واستفادوا ومدوا أيديهم إلى بطون الكتب فعرضوا لنا صفحات من ديننا السَّامي، ونقّبوا عن الكنوز الدفينة، وغاصوا في قيعان البحار فخرجوا منه كل جديد، والمكتبة الإسلامية الشاهد الوحيد على هؤلاء. فرحم الله الجميع. آمين. آمين.

وبازدهار الحركة العلمية في العصر المملوكي كثرت المؤلفات المستوعبة في كل فن، والموسوعات الجامعة لكل علم، ولست في هذه الصفحات مؤرخاً للنهضة العلمية في زمن المماليك[2]، فلذلك مجال شاسع، برز فيه نفر من كبار الباحثين، ولكني أتحدث عن بطولة نفر من كرام العلماء حملوا أمانة الحق، إذ جهروا بالصدق، وكافحوا الباطل مكافحة من يعلم دعوة الإسلام الصريحة للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فكانوا قادة شعوب، ومصابيح ليل.

ونحن نعلم أن الحاكمين من المماليك كانوا كل شيء في الدولة، وكان أتباعهم من الأمراء ورؤساء الجند، لا يتقيدون بدستور يلزم

---

(١) ابن مالك النحوي صاحب الألفية الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي الحياني. توفي بدمشق ليلة الأربعاء ثاني عشر رمضان. البداية والنهاية: ١٣/ ٢٦٧.

(٢) المقصود المماليك البحرية والبرجية، أي التركمان والجركس.

ويلجم، إذ يكفي أن يكون الأمير موضع الرضا من السلطان حتى يبطش ويقهر، ويفرض الأتاوة كما يشاء، بل أن نهب المتاجر، وسلب الأموال، وتفتيش منازل من يتوهم لديهم الثراء للاستيلاء على كل ما يجدونه من المدخرات، كان ذلك كله يمضي طبيعياً دون اعتراض، وكأنه أمر مشروع! أقول دون اعتراض من السلطان ومن بيدهم الأمر، إذ إنهم في أكثر الأمور كانوا محرضين موجهين، فكيف يحرصون بعد ذلك على إحقاق الحق، ونصرة المظلومين.

في هذا الجو القاتم الخانق كانت رسالة علماء الدين في إحقاق الحق تواجه من الصعوبات القاسية أشق ما تواجه رسالة حق مجردة من السلاح! وكان العالم فدائياً بالمعنى الدقيق، لأنه يصدع بأمر الله بين جبابرة مارقين.

نعرف جيداً أن للعصر المملوكي في مصر حسناته، فهو الذي دفع التتار عن بلاد الإسلام بعامة، إذ أنزل بهم أقوى الهزائم الماحقة، بعد أن زحفوا كالسيول الساحقة، تدمر ما تأتي عليه، وبعد أن حولوا ممالك الشرق أطلالاً تنعق في آفاقها الغربان والبوم، كما نعرف أبطال هذا العصر قد أنهوا الهجوم الصليبي، وقطعوا دابره قطعاً لا رجعة بعده، فأعادوا إلى البلاد استقلالها الزاهر.

كما نعرف أن من السلاطين من رصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والإحسان، وتشجيع الدروس الدينية، وبناء المساجد، وإحياء العلوم والآداب. ولكن ذلك كله يضيع سدى أمام احتقار الحاكمين لأفراد الشعب. إذ يغصبون أموالهم كما يشاؤون دون اكتراث، كما لا

يحاولون إشراكهم في رأي، أو الاستماع إلى نصيحة مخلصة يبديها صادق غيور.

فإذا قاموا بتعمير مسجد، أو بناء مستشفى، فإنهم لا يفعلون ذلك لأنه حق واجب، بل ليكونوا متفضلين محسنين فحسب. وفرق بعيد بين أن يتعلم الإنسان لأن من حقه الطبيعي أن يتعلم في وطنه، وأن يعالج المريض لأن من حقه أن يعالج، وبين أن يتعلم ويعالج إحساناً وتفضلاً من الحاكمين، هذا إلى غير ما ابتلى به الشعب من فرض الضرائب الفادحة، وانتشار الأمراض والأوبئة، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعافنا ويعفو عنّا إنّه هو السميع العليم.

٣ ـ عصر النووي الاجتماعي

لقد تولّد في هذا العصر النووي نوعين من الحياة، وكانت كل حياة منهما وليدة الظروف المنبثقة منها. وهذه الظروف خليقة الحياة السياسية في هذا العصر، فمع الاستقرار والهدوء السياسي تنبثق حياة اجتماعية هادئة، وهي آخر حياة الأيوبيين، ففي هذه الآونة الأيوبية كثرت الصدقات والعطايا، وإكرام العباد، وكثرت عطايا الملوك للعلماء والفقهاء، واهتم الخلفاء بالمساجد وبنائها، وعاش الناس في نعيم ورغد. وفي العصر الثاني الذي عاشه الإمام النووي وهو عصر المماليك، اختبر الناس بمحنة المغول، حيث أغلقت الحانات، وهدّمت الديار، وامتلأت الشوارع بالقتلى، وأصبح الرجل لا يجد من يداري سوأته، وسبيت النساء والأطفال، وأغلقت المدارس وتوقفت أحوال الناس، وتنكّر الأخ لأخيه، والابن لأبيه، ومات الناس جوعاً

وظمأً، وعاش الناس خوفاً وفزعاً، وارتفع الغلاء بسبب حرب التتار، وتركت الناس ديارهم؛ وهجروا بلادهم، ومزارعهم، وذهبوا إلى حيث الأمن والأمان، كل يريد نفسه، ووصلت المهالك إلى حلب، وأصبحت الديار المصرية على موعد الوعيد، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل مصر دائماً مقبرة الغزاة، فاستيقظت الروح الإسلامية عند السلطان قطز الذي جهّز الجيش المصري تجهيزاً، وأعدّه إعداداً، وسلّحه تسليحاً، حتى كانت نهاية الغزاة الغاشمين في معركة عين جالوت الخالدة، وبذلك تخلّص الإسلام من شرٍّ بلاء سلّط عليهم. هذه خلاصة الظروف الاجتماعية التي سادت عصر الإمام النووي رحمه الله تعالى.

وسادت ظروف سيئة عاشها العالم الإسلامي خلال هذه الحقبة من الزمن، فقد ابتلي الشعب بانتشار الأوبئة الماحقة، وجفاف النيل في سنوات تعاقبت، فحدث من المجاعات الفاجعة ما تقشعر له الأبدان، حين تقرأ ما دونه المؤرخون من فظائع القحط، وأهوال الجوع، وانتشار الغلاء، والشر يدفع إلى الشر، فقد جلبت هذه المجاعات مختلف الأوبئة القاتلة، فانتشرت الأمراض، ودفن المئات من الموتى في اليوم الواحد. وتجرأ العصاة من شذاذ العربان وقطاع الطرق، فنهبوا ما وقعت أيديهم عليه من القوت الضروري لأناس يكتفي أحدهم بالكسرة اليابسة في اليوم الطويل! والسلاطين والأمراء من وراء ذلك كله يبطشون بلا وازع ويحكمون بلا قانون.

الفصل الثاني

١ ـ نسبه ومولده

٢ ـ نشأته

٣ ـ نبذة عن والد الإمام النووي

٤ ـ بدء اشتغاله بطلب العلم

٥ ـ اجتهاد الإمام النووي في طلب العلم

٦ ـ شيوخ الإمام النووي

٧ ـ مسموعاته

٨ ـ تلاميذه بالتلقي

٩ ـ تلاميذه بالإجازة

١ ـ نسبه ومولده

هو الإمام الحافظ الفقيه المحدِّث، ناصر السنة، وقامع البدعة، وحيد عصره، شيخ الإسلام، وعلم الأولياء، كبير الفقهاء في زمانه، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي الدمشقي.

ولد في نوى[١] ـ قاعدة الجولان من أرض حوران ـ من أعمال دمشق في العشر الأوسط من شهر الله المحرم سنة (٦٣١ هـ)، وكان حزام جدّه الأعلى نزل الجولان بقرية نوى على عادة العرب فأقام بها ورزقه الله تعالى ذرية إلى أن صار منهم عدد كبير، فكان منهم هذا الإمام. وبلدته نوى اشتهرت به لعلمه الرائد، وفقهه الصائب، وكانت نوى تنطق ولا زالت تنطق شهرة به، وخلوداً باسمه على أفواه الألوف من علماء الفقه الشافعي[٢]. وقد ولد رحمه الله تعالى في العشر

---

(١) قال ياقوت الحموي: بليدة من أعمال حوران، وقيل: هي قصبتها، وهي منزل أيوب عليه السلام. وبها قبر سام بن نوح فيما زعموا.

(٢) الإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن هشام بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي المكي. نزيل مصر، إمام الأئمة، وقدوة الأمة. مات في آخر رجب سنة أربع ومائتين.

الأوسط من المحرم، وقيل في العشر الأول سنة ٦٣١ هـ. وولد بنوى الإمام النووي[١].

٢ ـ نشأته

قدم الإمام النووي رحمه الله تعالى إلى دمشق سنة تسع وأربعين، والذين رأوا الإمام النووي رحمه الله من أهل الفضل في بلده وهو صبي، فتفرّس فيه النجابة، واجتمع بأبيه شرف، ووصاه به، وحرّضه على حفظ القرآن والعلم، فبدأ بحفظ القرآن، وأخذ يتأدَّب على أهل الفضل ويزورهم ويستشيرهم في أموره، تاركاً اللعب واللهو، مقبلاً على قراءة القرآن وحفظه، ولقد رآه بعضهم في نوى والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، وهكذا لازم على قراءته حتى حفظه وقد ناهز الاحتلام. وفي سنة تسع وأربعين وهي السنة التي قدم به والده إلى دمشق لطلب العلم، كان الإمام النووي رحمه الله قد بلغ تسع عشرة سنة، فسكن المدرسة الرواحية[٢]، فحفظ «التنبيه» في أربعة أشهر

---

(١) تحفة الطالبين لابن العطار: ٣/ ١. مصوّر.

(٢) هذه المدرسة كان قد أنشأها زكي الدين أبو القاسم هبة الله بن محمد الأنصاري المعروف بابن رواحة، وقد توفي سنة ٦٢٢ هـ فسميت المدرسة نسبة إليه، وكان تاجراً صاحب ثروة، وقد ابتنى هذه المدرسة داخل باب الفراديس ـ هو باب العمارة الجوانية ـ شرقي مسجد عروة الذي هو قرب الجامع الأموي ولصيقه شمال جيرون، وأوقفها لدراسة فقه الإمام الشافعي، وفوض تدريسها ونظرها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري، وقد درّس بها بعده كثير من العلماء الأجلاء، وقد أصبحت الآن دوراً للسكن، =

ونصف، وقرأ «المهذب» للشيرازي في باقي السنة على شيخه الكمال إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي المقدسي، وهو أول شيوخه في الفقه، وقد لازمه ملازمة شديدة، فأُعجب به لما رأى من ملازمته للاشتغال وعدم اختلاطه بالنّاس، وأحبه محبة شديدة، وجعله معيد الدرس بحلقته لأكثر الجماعة، وفي سنة (٦٥١ هـ) حج مع أبيه، وارتحل من أول شهر رجب، وأقام بالمدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والتحية، شهراً ونصف شهر، وقد مرض في طريقه، وأصابته حمى من حين توجه من بلده نوى مع والده، ولم تفارقه إلى يوم عرفة، وهو صابر محتسب، ولما أتم الحج، عاد مع والده إلى نوى، ورجع هو إلى دمشق وقد لاحت عليه أمارات النجابة والفهم، فأخذ يشتغل بالعلم، ويقتفي آثار شيوخه الصالحين في العلم والعبادة والزهد والورع وعدم إضاعة شيء من الوقت لا في الليل ولا في النهار، حتى صار في وقت قصير حافظاً للحديث وفنونه، عالماً بالفقه وأصوله، وأصبح رأساً في معرفة مذهب الإمام الشافعي رحمه الله، وتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية[1] والتدريس بها دون أن يأخذ من معلومها شيئاً حتى توفي رحمه الله.

وكم من هذه المدارس التي أوقفها أهل الخير، زالت آثارها وتسلطت عليها أيدي المختلسين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) وهي لا تزال عامرة حتى الآن، وهي في أوائل سوق العصرونية من الجانب الغربي، وفيها إعدادية للعلوم الشرعية، يدرس فيها بعض العلماء الأفاضل، وقد بناها السلطان الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن عبد الملك العادل، ووقف عليها الأوقاف، وكان بناؤها سنة (٦٢٨ هـ). درس بها: أبو عمرو بن الصلاح، ثم عماد الدين عبد الكريم الخرستاني، ثم الشيخ عبد الرحمن بن =

٣ ـ نبذة عن والد الإمام النووي

نشأ الإمام النووي رحمه الله في كنف أبيه، وكان أبوه شرف بن مري: فقد كان دكانياً بنوى[١]، أي له دكان يبيع فيه. ويقول الذهبي[٢]: «وكان شيخاً مباركاً»[٣]. وعاش والد النووي بعد وفاة والده تسع سنوات، وقد تجاوز السبعين سنة. وكان الإمام النووي حينما بلغ من العمر العشر سنين، أراد أبوه أن يجعله على دكان يبيع ويشتري، ولكن رغبة النووي في العلم والتعلم، وانشراح صدره

= إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة، ثم الشيخ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، ثم زين الدين الفارقي، وابن الوكيل، وابن خطيب زملكا، والحافظ المزي، وجماعات كثيرون، كالحافظ ابن كثير الدمشقي، وتاج الدين السبكي، وبهاء الدين السبكي، وولي الدين السبكي، والحافظ ابن ناصر، والحافظ ابن حجر العسقلاني وغيرهم، ثم تلاشى أمر المدرسة بعد سنة (١٢٠٠ هـ) واستولت عليها أيدي المختلسين، وأصبحت حانة لبيع المنكرات، ثم عادت مدرسة بهمة العالم الفاضل الشيخ يوسف بدر الدين البياني الشهير بالمغربي، ومساعدة الأمير عبد القادر الجزائري، وأحياها محدّث الديار الشامية في عصره الشيخ بدر الدين البيباني الحسيني ابن الشيخ يوسف البيباني رحمهما الله.

(١) ترجمة النووي للسخاوي: ص ٤.

(٢) الذّهبي، الإمام الحافظ، محدث العصر، وخاتمة الحفاظ، ومؤرخ الإسلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قَايْمَاز الرُّكماني ثم الدمشقي المقرىء. توفي يوم الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة بدمشق.

(٣) المصدر الأول: ص ٧٦.

للقرآن الكريم جعل البيع والشراء لا يشغله عن القرآن الكريم[1]، والجد والاجتهاد والمذاكرة».

٤ ـ بدء اشتغاله بطلب العلم

كان أول من لقي النووي من العلماء بعدما وصل إلى دمشق إمام وخطيب الجامع الأموي الشيخ جمال الدين عبد الكافي بن عبد الملك بن عبد الكافي التربعي الدمشقي[2]، وكعادة علمائنا وشيوخنا الأوائل فكانت المساجد هي مقر الدعوة والعلم والعمل، وإليها يرحل طلاب العلم من كل مكان، وبعد أن التقى النووي بخطيب المسجد الأموي أخذه وتوجّه به إلى حلقة مفتي الشام تاج الدين بن إبراهيم بن ضياء الفزاري، عرف بالفركاح[3] وقرأ عليه أول درس، وبقي النووي ملازماً له مدة، وهذا أول شيخ للنووي.

وليس الجامع الأموي بدمشق هو المتّسع الوحيد للعلم في ذلك الزمان، بل ازدهر مجد الأزهر بعد انتهاء الدولة الأيوبية، حيث رأى الظاهر بيبرس، أن يعيد إلى المسجد الكبير دوره الديني والثقافي من جديد، فأقيمت به الصلوات، وانتظمت الدروس، ولا ننكر أن المدارس المجاورة بالمساجد القاهرية كانت تشاركه حينئذ في دوره المجيد، إذ إن حلقات العلم قد امتدت في أكثر بيوت الله، لوفرة من

---

(١) تحفة الطالبين: ٣/ب.

(٢) السخاوي: ص ٨.

(٣) الفركاح: يقول التاج السبكي: فقيه أهل الشام تفقه على الغر بن عبد السلام، وتوفي سنة ٦٩٠. وبنو الفركاح: قبيلة بالشام.

نبغوا من العلماء مصريين ووافدين، حيث كانت مصر بعد سقوط الخلافة ببغداد شرقاً، وكارثة الأندلس غرباً، مصباً زاخر الأمواج تتدافع إلى الكنانة ناشدة الأمن والنجاة.

وفي هؤلاء من له في العلم قدم ذات رسوخ، فرأوا في مصر موطناً رحيماً، يسبل عليهم رعايته وتقديره، إذ إن الإسلام وطن حقيقي لكل مسلم، ومصر كعبة الإسلام الحاضنة لأبنائه على مدى العصور.

ويكاد هذا المسجد الأموي أن يكون أجمل مساجد الدنيا قاطبة، فقد أحضر له منشئه الوليد[1] بن عبد الملك آلاف الصُنَّاع ومهرة المهندسين من بلاد الروم، وبذل في إنشائه من المال كل عزيز يحرص عليه، وقد زاره الرحالة على تعاقب العصور، فكتبوا عنه ما بهر وأدهش، ومنهم من زار مساجد العالم شرقاً وغرباً، ورأى اختلاف نماذج العمارة باختلاف المدن والأذواق، وكلهم أجمع على تفضيل المسجد الأموي بدمشق.

وقد ذكر ابن جبير[2] من عجائبه باب الساعات حيث خصصت غرفة بأعلى بعض الجدر لمعرفة الوقت، ولتحديد ميعاد الصلاة ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء وفجراً، وكانت هذه الغرفة النادرة ذات أبواب صغار على عدد ساعات النهار، وقد دبّرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء

---

(١) الوليد بن عبد الملك، أبو العباس، مات سنة ست وتسعين في نصف جمادى الآخرة، وله إحدى وخمسون سنة.

(٢) سعيد بن جُبَير بن هشام الأسدي الوالبي أبو محمد أو أبو عبد الله الكوفي. قال عمرو بن ميمون عن أبيه: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه. مات سنة اثنتين وتسعين.

ساعة من النهار تسقط صنجتان من فمي بارزين مصورين قائمين على طاستين من نحاس، ولا يزال البازان يحكمان عملهما بدقة لتسقط الصنجتين في ميعادهما المحدد كل ساعة، وبسقوط كل صنجة يغلق الباب، فإذا أغلقت الأبواب جميعها فقد انتهت ساعات النهار، ومن أراد أن يعرف في أي وقت هو أثناء اليوم فعليه أن يعدد الأبواب المغلقة والأبواب المفتوحة، ليعرف كم مر من الساعات، وكم بقي؟ وفي هذا الاختراع النادر بالنسبة لزمنه المتقدم ما فيه من الحنكة والإبداع. ولا يكاد ينقطع التدريس ساعة واحدة من ساعات المسجد إلا لتلاوة القرآن الكريم، أو سماع الحديث الشريف من قارىء مجيد! وقد خصصت بعض الأماكن لتلاوة الكتاب ولتدريس علوم الشريعة واللسان.

يقول ابن جبير في رحلته بتصرف يسير: «وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن قراءة دائمة، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية، تقرأ فيها سورة الكوثر وما بعدها إلى الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن، وللمجتمعين على ذلك إجراء يومي، يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان. وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم، فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساء، وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيه طلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما يحدّث به أن سارية من سواريه وهي بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس، أبصرنا بهما

فقيهاً من أهل إشبيلية يعرف بالمرادي، وعند فراغ المجتمع من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن، وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة، وأهل اليسار من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها، وسائرهم يأخذها، وهذا من المفاخر الإسلامية».

هذا ما قاله ابن جبير، وقد ذكره ابن بطوطة أيضاً في رحلته، وتحدث عن الحركة التعليمية بالمسجد حديثاً ينبىء عن اهتمام والتفات، وكان مما قاله قوله[1]: «ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى، وإنما يقرؤون القرآن تلقيناً، ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك يجود خطه، إذ إن معلم الخط لا يعلم غيره»..

«وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه، يقبلون على الصلاة والقراءة والذكر، ولا يفترون عن ذلك، ويتوضأون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية، وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك»[2].

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة، ١/٧٦ ـ طبعة وزارة المعارف.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٤.

هذه صورة مختصرة عن المسجد الأموي الذي سمع فيه الإمام النووي دروسه الأولى، والذي كان إليه القصد والرحيل منذ أن ترك بلدته نوى، وفي هذا المسجد كان مبيته في أيامه الأولى، ولا يزال المسجد الأهلي في الريف مأوى الغرباء من أبناء السبيل، فلا تعدم أن ترى كل مغرب تحت مئذنته جماعة يوقدون النار في الشتاء مصطلين، ليعرفهم من أهل الخير من يتقدم لهم بالعشاء، حتى إذا كان النوم بعد الصلاة الأخيرة لاذو بالمسجد مستريحين، وقد كثرت المدارس الدينية حول المسجد الأموي، وهي فرع منه تنسب إليه، ويؤمها مجاوروه، وبها مدارس خاصة بالحديث، ومدارس خاصة بتلاوة القرآن، ومدارس تشترك في جميع فنون العربية، وكان نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومن وليه من بني أيوب يهتمون كثيراً بهذه المدارس ويعينون طلابها على التفرغ للعلم بما يبذلون من رواتب محددة، وفي كتاب «خطط الشام»[١] إحصاء دقيق لهذِه المدارس شمل عدة صفحات! وهذه المدارس تتطلب باحثاً متخصصاً يؤرخ لها تأريخاً دقيقاً يكشف عن أساتذتها وطلابها وموادها العلمية، ومصادر أجورها، إذ إنها حلقة من سلسلة ذهبية تحتاج إلى صقل وجلاء، ولا نعرف عالماً جهيراً من علماء العصر الأيوبي والعصر المملوكي في مصر لم يزر المسجد الأموي ولم يقرأ في مدارسه، لأن الرحلة كانت دائمة بين علماء القطرين، وكان القضاء بأمر السلطان المملوكي، فهو يبعث إلى دمشق من يعينه ويختاره، كما ينتدب من علماء الشام من يقوم بالقضاء أو الخطابة في الديار المصرية، وقد أسفر هذا التعاون

---

(١) كتاب «خطط الشام» للأستاذ محمد كردعلي. الجزء السادس.

العلمي عن نهضة خصبة حية إذ اتسمت في أكثرها الغالب بالجمع والاستقصاء فحسبها أنها حفظت مسائل العلم من الضياع.

وللإمام أبي حامد الغزالي[1] قصة مشتهرة بالمسجد الأموي، إذ إنه في رحلته التي نهض بها إلى دمشق تَزَيًّا بزي الفقراء، واتخذ سمة الدراويش من المنقطعين للعبادة، على أن شغفه بالمذاكرة كان يدفعه إلى حضور الحلقات مستمعاً لا مناقشاً، وفي مظهره الخارجي ما يدل على أنه ليس على شيء من العلم، وحسبه أن يستمع، وقد يكون المدرس من تلاميذ تلاميذه، ولكنه في اعتزاله المتصوف قد آثر التخفي والانزواء.

وصادف أن جاء سائل عن مسألة من مسائل الميراث، فأخذ يعرضها على شيوخ الحلقات شيخاً وراء شيخ، وكلهم يعتذر، ويحيل على سواه، ويطلب من السائل أن يرجع إليه بالإجابة إذا اهتدى إليها، حتى يئس الطالب وهم بالخروج، فلحقه أبو حامد وطلب منه أن يقف ليعلم الإجابة، فدهش الرجل، وكاد يستهزىء بالغزالي، ولكنه ابتسم وقال: خذ الإجابة واكتبها بدليلها ثم اعرضها على الفقهاء! واستجاب صاحبنا، فكتب ما أملاه الغزالي ومضى به إلى شيوخ الحلقة، فتجمعوا مدهوشين، وأخذوا يتساءلون عن هذا الإمام الذي يجاورهم ولا يدرون! وهرعوا إليه، فعرفوا أنه حجة الإسلام، فأكبوا على يده مقبلين، ورجوه أن يجتمع الأساتذة وحدهم في المدرسة المجاورة

---

(١) أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن أحمد الغزالي. فقيه شافعي. ولد في طوس ونشأ فيها وتكاثر الفلاسفة في عصره. توفي سنة اثنتين وخمسين.

ليقرأ لهم درساً يتباهون به! ولكن الإمام رحل من الغد إلى بيت المقدس! وكيف ينتظر، وقد هرب من الجاه، فإذا به يهمّ بالرجوع.

هذه أحوال المسجد الأموي الذي تخرّج منه الأعلام على مرّ العصور والزمان.

٥ ـ اجتهاد الإمام النووي في طلب العلم

بعدما رحل الإمام النووي إلى دمشق، واستقر في المدرسة الرواحية، أقبل على طلب العلم بمخايل ذكائه، وقوة فكره، إلى درجة وجهت إليه أنظار من كان يراه، فقد قال الإمام النووي رحمه الله: «وبقيت سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض»[١]، وهذا يدل على شدة اجتهاده، وشغفه بالعلم. وقد ذكر اليونيني[٢]: أنه كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه، يشتغل في تكرار محفوظة أو مطالعة، وإنه بقي التحصيل ـ على هذا الوجه ـ ست سنين[٣]. ويقول الذهبي: وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وهجره النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردد على الشيوخ[٤].

---

(١) الدارس في أخبار المدارس للنعيمي: ١/٢٦٨.

(٢) اليونيني هو: موسى بن محمد اليونيني البعلبكي قطب الدين أبو الفتح المؤرخ، كانت وفاته بدمشق سنة ٧٢٦ هـ.

(٣) السخاوي: ص ١١ ـ ١٢.

(٤) المصدر السابق: ص ٧.

قال ابن العطار: ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يضيع له وقتاً لا في ليل ولا في نهار [إلا في اشتغال] حتى في الطرق وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق[١]. قال الذهبي: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها كان حافظاً للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعليه رأساً في معرفة المذهب. وكان الإمام النووي كثير السهر على ميراث رسول الله ﷺ، ومكباً على العلم والعمل، وكيف لا يكون الإمام النووي كذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٢]، وعن أنس[٣] بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٤].

والأحاديث النبوية التي تحث على طلب العلم كثيرة، وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم والله يحب إغاثة اللهفان»[٥]، وروي عن مالك أنه سئل عن طلب العلم أهو

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي: ٤/ ١٤٧٢.

(٢) جامع بيان العلم: ١/ ٧.

(٣) أنس بن مالك بن النضر أبو حمزة الأنصاري المدني، خادم رسول الله ﷺ، وله صحبة طويلة وحديث كثير. مات في سنة ثلاث وتسعين.

(٤) جامع بيان العلم: ١/ ٩.

(٥) رواه ابن عدي في الكامل، والعقيلي في الضعفاء، والبيهقي في شعب الإيمان.

فريضة على الناس فقال: لا ولكن يطلب من المرء ما ينتفع به في دينه، وقال عبد الله[1] بن المبارك عن قول النبي ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم» قال: ليس هو الذي يطلبونه، ولكن فريضة على من وقع في شيء من أمر دينه أن يسأل عنه حتى يعلمه، ولكن روي عن عبد الله[2] ابن الماجشون قال سمعت مالكاً وسئل عن طلب العلم أواجب فقال: أما معرفة شرائعه وسننه وفقهه الظاهر فواجب، وغير ذلك منه من ضعف عنه فلا شيء عليه. وقال سفيان[3] بن عيينة: طلب العلم والجهاد فريضة على جماعتهم ويجزىء فيه بعضهم عن بعض وتلى هذه الآية[4]: ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** ﴾[5]. والأحاديث النبوية الصحيحة وأقوال الصحابة والتابعين فمستفيضة كثيرة، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

---

(١) عبد الله بن المبارك المروزي، مولى بني حنظلة، ثقة، ثبت فقيه عالم جَواد مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة إحدى وثمانين، وله ثلاث وستون.

(٢) ابن الماجشون، هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله الفقيه، وأبوه، وابن عمه يوسف بن يعقوب.

(٣) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي، ثم المكي، ثقة حافظ فقيه إمام حجة، إلا أنه تغير حفظه بآخره، وكان ربما دلّس، لكن عن الثقات. مات في رجب سنة ثمان وتسعين.

(٤) جامع بيان العلم وفضله: ص ٩ ـ ١٠.

(٥) سورة التوبة، آية: ١٢٢.

العلم رضى لما يصنع»[1]. قال ابن عبد البر[2]: قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على امرىء في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع، واختلفوا في تلخيص ذلك، والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان، والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له لا شبه له، ولا مثل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد خالق كل شيء، وإليه مرجع كل شيء المحيي المميت الحي الذي لا يموت. وقال إمام الحرمين[3]: فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث إن فاعله يسد مسد الأمة ويسقط الحرج عن الأمة، وفرض العين قاصر على العين.

---

(١) رواه أبو داود في: (٢٤) كتاب العلم ـ (١) باب الحث على طلب العلم ـ حديث رقم: (١).
ورواه الترمذي في: (٣٩) كتاب العلم ـ (١٩) باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ـ حديث رقم: (٢٦٨٢).
ورواه ابن ماجه في «المقدمة» ـ (١٧) باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ـ حديث رقم: (٢٢٣).
ورواه أحمد في «مسنده»: ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤١، ٥/ ١٩٦.

(٢) ابن عبد البر الحافظ الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النَّمري القُرطبي مات ليلة الجمعة سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

(٣) إمام الحرمين، هو عبد الله بن عبد الله بن يوسف الجويني، لقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، توفي سنة ثمانية وسبعين وأربعمائة.

ثم يقول النووي: اعلم أن ما ذكرناه من الفضل في طلب العلم إنما هو في مَن طلبه مريداً به وجه الله تعالى لا لغرض من الدنيا، وكان الرسول ﷺ مثل المربي المخلص، والمعلم المرشد، وكيف لا يكون كذلك وقد بعثه الله عزّ وجلّ ليتمم مكارم الأخلاق؟ فقد كان يعامل المسلمين جميعاً معاملة طيبة كريمة، فكان لهم أخاً متواضعاً، ومعلماً حليماً، بل كان أباً رحيماً، فإذا ما أراد أن يعلم أصحابه بعض الآداب خاطبهم ألين الخطاب وأحبه إلى نفس المخاطب، فيقول مثلاً: «إنّما أنا لكم مثل الوالد إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها»[1].

وكان إذا تكلّم الرسول ﷺ أحسن البيان، وفصل القول وربما أعاده أكثر من مرة، فيحفظه من يسمعه، عن السيدة عائشة[2] رضي الله عنها أنه ﷺ «كان لا يسرد الكلام كسردكم، ولكن كان إذا تكلّم بكلام فصل يحفظه من سمعه»[3].

وفي رواية: «إنما كان يحدّث حديثاً لو عدّ العاد لأحصاه». فكان يبين للناس الأحكام جيداً حتى لا يبقى لسامع سؤال، ولا لسائل مشكل يقف عنده، حتى إنه كان يجيب السائل بأكثر من سؤاله».

ولهذا كان يقول الإمام النووي: من أراد هذا العلم لغرض دنيوي

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» حديث رقم: (٧٣٦٢). ورواه البخاري بنحوه.

(٢) عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق. كان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليها، تفقه بها جماعة. توفيت سنة سبع وخمسين.

(٣) **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ـ للخطيب البغدادي، ص ٩٦/ب.**

كمال أو رياسة أو منصب أو جاه، أو شهرة أو استمالة الناس إليه، أو قهر المناظرين أو نحو ذلك فهو مذموم. ولهذا كان الرسول ﷺ يعلم أصحابه القرآن الكريم، آيات معدودات، يبينها لهم: فيتفهمون معناها، ويتعلمون فقهها، ويطبقونه على أنفسهم ثم يحفظون غيرها، وفي هذا يقول أبو عبد الرحمن[١] السلمي: «حدثنا الذين كان يقرؤوننا القرآن ـ كعثمان بن عفّان[٢]، وعبد الله بن مسعود[٣] وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يتجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل... قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم جميعاً»[٤].

وروى الأعمش[٥]، عن أبي وائل[٦]، عن عبد الله بن مسعود قال:

---

(١) عبد الرحمن السلمي هو: عبد الله بن حبيب بن ربيعة، أحد كبار التابعين، الذين سمعوا عثمان وابن مسعود وزيد بن ثابت وغيرهم رضي الله عنهم، توفي سنة (٧٢ هـ)، وقال البخاري: وفاته بين سنتي (٧٠ و ٨٠). انظر طبقات ابن سعد: ٦/ ١١٩، وتهذيب التهذيب: ٥/ ١٨٣.

(٢) أمير المؤمنين عثمان بن عفان أبو عمرو الأموي ذو النورين، ومن جمع الأمة على مصحف واحد. هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وروى جملة كثيرة من العلم توفي يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

(٣) عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن الهذلي صاحب رسول الله ﷺ وخادمه وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدريين، ومن نبلاء الفقهاء المقرئين. مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين.

(٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ص ٦.

(٥) سليمان بن مِهران الأعمش الأسدي الكاهلي مولاهم أبو محمد الكوفي. أحد الأعلام. رأى أنساً وأبا بكرة. قال العجلي: كان ثقة ثبتاً في الحديث. مات سنة ثمان وأربعين ومائة.

(٦) أبو وائل شَقيق بن سَلَمة الأسدي ـ أسَد خزيمة الكوفي. أدرك ولم ير. قال =

«كان الرجل منّا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[1]. وأكثر من هذا فإن بعضهم كان يقيم عند الرسول ﷺ يتعلم أحكام الإسلام وعباداته ثم يعود إلى أهله وقومه يعلمهم ويفقههم، من هذا ما أخرجه الإمام البخـاري[2] عن مالك بن الحويرث[3] قال: «أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظنّ أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمن تركنا في أهلنا، فأخبرناه، وكان رفيقاً رحيماً، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ثم لِيؤمّكم أكبركم»[4].

= أبو عبيدة: أبو وائل أعلم أهل الكوفة بحديث عبد الله. مات سنة اثنتين وثمانين.

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٤٤.

(٢) البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم. الحافظ العلم، صاحب «الصحيح» وإمام هذا الشأن، والمعول على صحيحه في أقطار البلدان. مات ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين.

(٣) مالك بن الحُوَيرث، بالتصغير، أبو سليمان اللّيثي، صحابي، نزل البصرة، مات سنة أربع وتسعين.

(٤) رواه البخاري في: (١٠) كتاب الأذان ـ (١٧) باب من قال: ليؤذّن في السَّفر مؤذّن واحد ـ حديث رقم: (٦٢٨).

ورواه مسلم في: (٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ (٥٣) باب من أحق بالإمامة ـ حديث رقم: (٢٩٢).

ورواه ابن ماجه في: (٥) كتاب إقامة الصلاة ـ (٤٦) باب من أحق بالإمامة ـ حديث رقم: (٩٧٩).

ورواه أحمد في «مسنده»: ٣/ ٢٣٨، ٤٣٦، ٤/ ٤٩، ٥٤.

مثل هذه الأخبار تبين لنا جانباً عملياً من تطبيق أحكام الشريعة وتعاليمها، ومن المسلم به أنه إذا رافق العلم التطبيق العملي، كان أجدى فائدة، وأقوى رسوخاً، وأشد ثبوتاً في النفوس، فما ظننا بصحابة رسول الله ﷺ وهم يتلقون كل هذا بين يدي رسول الله ﷺ ويطبقونه؟، ما أجمل هذا التعليم وما أطيبه، إن مثل هذه الحوادث وما فيها من تعاليم وأحكام وآداب سيذكرها أصحابها، ومن يسمع بها ما دامت فيهم نبضة عرق، أو خفقة قلب، وكان الإمام النووي رحمه الله من الذين فتح الله عليهم، فقد حفظ التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي[١] في نحو أربعة أشهر ونصف، ثم حفظ ربع العبادات من المهذب لأبي إسحاق أيضاً في باقي السنة[٢].

ثم كان الإمام النووي رحمه الله في أوّل طلبه العلم ـ يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً درسين في الوسيط، وثالثاً في المهذب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين، وخامساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جني[٣] في النحو، ودرساً في المنطق لابن السكيت[٤] في اللغة، ودرساً في التصريف، ودرساً في

---

(١) أبو إسحاق الشيرازي هو: إبراهيم بن علي الفيروزبادي الشيرازي مفتي الأمة وعالمها في عصره، توفي سنة ٤٧٦ هـ.

(٢) السخاوي: ص ٥.

(٣) ابن جني: هو عثمان بن جني أبو الفتح النحوي، من أحذق علماء النحو والتصريف، توفي سنة ٣٩٢ هـ.

(٤) ابن السكيت: هو يعقوب بن إسحاق أبو يوسف بن السكيت، نحوي مشهور، توفي سنة ٢٤٤ هـ.

أصول الفقه ـ تارة في اللمع لأبي إسحاق، وتارة للفخر الرازي[1]، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في التوحيد ـ. قال الإمام النووي: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي، وأعانني عليه[2].

قال الإمام النووي في مقدمته على شرح «صحيح» الإمام مسلم[3]: وكنت أعلّق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل وتوضيح عبارة وضبط لغة، وخطر لي أن أشتغل في الطب فاشتغلت في كتاب القانون، وأظلم قلبي، وبقيت أياماً لا أقدر على الاشتغال فأشفقت على نفسي، وبعت القانون فنار قلبي.

٦ ـ شيوخ الإمام النووي

للإمام النووي رحمه الله عددٌ من العلماء الشيوخ الذين سمع منهم، وجالسهم، وأخذ من صدورهم، ونهج نهجهم، واقتفى أثرهم، هؤلاء الشيوخ أصحاب فضل وسعة، فلا يعتد المرء عالم إلا بهؤلاء الجهابذة من فضلاء العلم، والذين يمحوا للإنسان جهله، ويضيئوا له الطريق، حتى يصل الإنسان إلى القمة، ولكن مع هذا شغوف بالعلم، لا يضيّع وقتاً من أوقاته إلا في الاشتغال بطلب العلم، حتى إنه في ذهابه وإيابه

---

(١) الفخر الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسن أوحد زمانه في المعقول والمنقول، توفي سنة ٦٠٦ هـ.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٧٠.

(٣) مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشيري النيسابوري، ثقة حافظ إمام مصنّف، عالم الفقه، مات سنة إحدى وستين، وله سبع وخمسون سنة.

في الطريق يشتغل في تكرار العلم الذي حفظه، مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع، وتصفية النفس من الشوائب، ومحقها من أغراضها.

وقد أسعف بالتأييد، وساعدته المقادير فقرَّبت منه كل بعيد، فكان يجد ـ مع الأهلية ـ ثلاثة أشياء. أحدها: فراغ البال واتساع الزمان، وكان رحمه الله قد أوتي من ذلك الحظ الأوفر، بحيث لم يكن له شاغل، والثاني: جمع الكتب التي يستعان بها على النظر والاطلاع على كلام العلماء، وكان قد حصل له من ذلك حظ وافر، لسهولة ذلك في بلده في ذلك الوقت. الثالث: حسن النية وكثرة الورع والزهد والأعمال الصالحة التي أشرقت أنوارها، وكان رحمه الله قد اكتال من ذلك بالمكيال الأوفى، فكان ذلك الإنتاج العظيم في عمره القصير الذي لم يتجاوز خمسة وأربعين عاماً، ولكنه كان مليئاً بالخير والبركة.

ولهذا يقول مؤلف الكتاب لا يجب أن يُعتدّ بعلم عالم حتى يُعْرَف شيوخه، وخاصة إذا كان هذا العالم ممن يعملون في علوم الشريعة بأصولها وفروعها المختلفة، ويستكمل الإمام النووي رحمة الله عليه الحديث[1] قائلاً: «وهذا ـ أي ذكر الشيوخ وتسلسلهم ـ من المطلوبات المهمات، والنفائس الجليلات، التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها، وتقبح به جهالتها فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، وصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهلة الأنساب والوصلة بينه وبين ربه

---

(١) مقدمة «صحيح مسلم» بشرح النووي: ١/هـ.

الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم»[1].

وسوف نذكر إن شاء الله هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم رحمة الله عليهم أجمعين، سبق أنْ ذكرنا أن الإمام النووي أوّل رحيله كان إلى المسجد الأموي، وسقنا فضل هذا المسجد القمري الذي يضيء بين كواكب الدنيا، وأن أول لقائه مع العلماء كان مع خطيب هذا المسجد الأثري الشيخ جمال الدين عبد الكافي، وإن كان لم يقرأ عليه شيئاً، إلا أن بصمته الوامضة واضحة على جبين الإمام النووي، فهو الذي أخذ بيده من الظلام إلى حلقة الشيخ مفتي الشام تاج الدين المعروف بالفركاح، وكان أول شيخ يلازمه الإمام النووي مدة يقرأ عليه من بحور الفقه، لكن الإمام النووي سَمَّى إسحاق المغربي شيخه الأول، وتكلّم عن نفعه به ومساندته له، فيقول الإمام النووي وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا الكمال إسحاق المغربي، ولازمته فأعجب بي، لما رأى من ملازمتي للاشتغال وعدم اختلاطي بالناس، وأحبني محبة شديدة، وجعلني معيد الدرس بحلقته لأكثر الجماعة[2].

ويرجع الفضل لله ثم للفركاح فهو الذي دلّ الإمام النووي على الشيخ أبي إسحاق المغربي. ثم انتقل بعد ذلك إلى الشيخ الإمام الزاهد الورع العابد، أبو محمد عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي، وكان أعرف الناس بالمذهب الشّافعيّ، وأجل

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١/ ١٨، وقارن بالسخاوي: ص ٦٣.

(٢) الدارس ١/ ٣٥، وقارن بالسخاوي: ص ٨.

أصحاب ابن الصّلاح رحمهما الله. ثم الشيخ أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي الإربلي الإمام المتقن رضي الله عنه. ثم تعلّم على يدي الشيخ أبي الحسن سلّار بن الحسن الإربلي ثم الحلبي ثم الدمشقي، قال عنه الإمام النووي: هو إمام المذهب في عصره والمرجوع إليه في حل مشكلاته، وكان رحمه الله مجمع على إمامته وجلالته وتقدمه في علم المذهب على أهل عصره بهذه النواحي. وبعد أن تمكّن الإمام النووي رحمه الله، ذهب إلى علماء الحديث ليغوص غوصهم، ويشرب من مائهم، ويأكل طعامهم، ويجلس في مجالسهم، ويتحدّث إليهم، ويسمع كلامهم، وينهج نهجهم، مقتدياً في ذلك بسنة رسول الله ﷺ، فكان لقاؤه الأول مع الشيخ إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي ثم المصري ثم الدمشقي، يقول النووي عنه: إمام حافظ متقن محقق ضابط زاهد ورع، الذي لم تر عيناي في وقتي مثله، وصحبته نحو عشر سنين، لم أرَ منه شيئاً يكره[1].

ومن شيوخه في الحديث زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي، قال عنه الإمام الذهبي[2]: الإمام زين الدين أبو البقاء إمام مفيد محدث حافظ، وقال عنه: كان ذا إتقان وفهم ومعرفة وعلم، وكان ثقة مثبتاً، وقال: وحدّث عنه الشيخ محيي الدين النووي في جملة من حدّث عنه، وكذلك أخذ الحديث عن الشيخ الرضي بن البرهان، وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمّد بن عبد المحسن

---

(١) الطبقات: ٨/ ١٢٢.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٤٧.

الأنصاري الحموي الشافعي، قال في الطبقات[1]: كان من أذكياء بني آدم، وبرع في الفقه والشعر وحدّث كثيراً. وأخذ عن الشيخ زين الدين أبو العبّاس بن عبد الدائم المقدسي، والشيخ الفاضل أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر بن أحمد بن محمّد بن قدامة المقدسي[2]، والشيخ قاضي القضاة عماد الدين أبو الفضائل خطيب دمشق، ومنهم: تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي، قال عنه الذهبي: بأنه كبير المحدثين ومسندهم، والشيخ جمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي الفتح الصيرفي الحرَّاني.

وتلقّى كذلك عن شيوخ فضائل غير هؤلاء منهم المفتي جمال الدين عبد الرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري ثم الدمشقي الحنبلي، وأخذ عن شيخه شمس الدين بن أبي عمرو، وعن الشيخ أبي بكر محمد بن نصر الله بن عبد الله بن عبد العزيز.

هذه جملة من أخذ عنهم الإمام النووي من بحر الفقه، وله من المشايخ في النحو واللغة، وعلم الأصول، من قرأ عليهم وسمع منهم، وأخذ من علوّ نجمهم، وسوف نذكر الآن مشايخه في علم النحو واللغة، فقد قرأ على الشيخ أحمد بن سالم المصري، كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت بحثاً، وكذا كتاباً في التصريف، وقرأ اللمع لابن جني على الفخر المالكي، وقرأ النحو على الشيخ أحمد بن

---

(١) الطبقات الكبرى للسبكي: ٨/ ٢٥٨.

(٢) المقدسي صاحب «كتاب الفقه» الشهير المسمى «بالمغني».

سالم المصري المذكور وغيره، وقرأ على ابن مالك كتاباً من تصنيفه، وعلّق عليه شيئاً[١].

وتتلمذ الإمام النووي على جماعة في علم الأصول، منهم العلامة القاضي أبو الفتح عمر بن بندار بن عمر بن علي بن محمد التفليسي الشّافعي، وكان قد قرأ عليه رحمهما الله المنتخب للإمام فخر الدين الرازي، وقطعة من كتاب المستصفى للإمام الغزالي، رحم الله الجميع.

٧ ـ مسموعاته

سمع الإمام النووي رحمه الله من مشايخه أمّهات كتب السنة، ونذكرها على ما وصل إلينا ترتيب سماعه لها:

صحيح البخاري.
صحيح مسلم.
سنن أبي داود.
سنن الترمذي.
سنن النسائي.
سنن ابن ماجه.
موطأ مالك.
مسند الشّافعيّ.
مسند أحمد.

---

(١) تحفة الطالبين مصورة ٧/ب.

سنن الدارمي.
مسند أبي يعلى.
صحيح أبي عوانة.
سنن الدارقطني.
سنن البيهقي.
شرح السنة للبغوي.
معالم التنزيل في التفسير للبغوي.
عمل اليوم والليلة لابن السني.
الجامع لآداب الراوي والسامع للخطيب.
الرسالة للقشيري.
الأنساب للزبير بن بكار.
وكتب أخرى.

والسماع: وهو أن يقرأ الشيخ الحديث من حفظه أو من كتاب، والحاضرون يسمعون لفظه، سواء أكان المجلس للإملاء أم لغيره، وهذه المرتبة أرفع أقسام التحمل عند جماهير أهل العلم، ورأى بعضهم أن السماع من الشيخ والكتابة عنه أرفع من السماع فقط، لأن الشيخ مشتغل بالتحديث والراوي بالكتابة عنه، فهما أبعد عن الغفلة وأقرب إلى التحقيق، لأن العادة جارية على المقابلة بعد الإملاء، والسماع هو طريقة الرعيل الأول من الرواة، ويدخل في السماع تحديث الشيخ من وراء ستار، وقد أجاز ذلك جمهور العلماء مستدلين بسماع الصحابة والتابعين الحديث من زوجات رسول الله ﷺ، وغيرهن من وراء حجاب وروايتهم ذلك عنهن، وشرط شعبة بن

الحجاج[1] رؤية الشيخ، فقال: «إذا سمعت المحدث ولم تر وجهه فلا ترو عنه»، وواضح من هذا فيما إذا كان المحدث رجلاً[2].

٨ ـ تلاميذه بالتلقي

للإمام النووي رحمه الله سلسلة من الشيوخ الكرام الذين أخذ عنهم العلم، ونحا نحوهم، وسار على دربهم، وقد أجمع هؤلاء المشايخ على حبه وتقديره، وكما أن العلم متداول، ولولا تداوله لاندثر، ولذلك قال تلميذه ابن العطار[3]: وسمع منه خلق كثير من العلماء والحفاظ والصدور والرؤساء، وتخرّج به خلق كثير من الفقهاء، وسار علمه وفتاويه في الآفاق. ويقول ابن العطار[4]: وكان رحمه الله رفيقاً بي، شفيقاً علي، لا يُمَكِّنْ أحداً من خدمته غيري، على جهد مني في طلب ذلك منه، مع مراقبته لي رضي الله عنه في حركاتي وسكناتي، ولطفه بي في جميع ذلك، وتواضعه معي في جميع الحالات، وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات، وأعجز عن حصر ذلك.

وقد أخذ عنه دون ابن العطّار عديدٌ من طلبة العلم، الذين أصبحوا علماء فيما بعد، ونذكر من هؤلاء:

---

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكي مولاهم، أبو بسطام الواسطي، ثم البصري، ثقة، حافظ متقن، كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وكان عابداً، مات سنة ستين.

(٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ـ تحقيق ـ د. محمد عجاج الخطيب ـ فقرة (٨٦٢).

(٣) تحفة الطالبين: ١١/ب.

(٤) المصدر السابق: ١/٩.

شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير والد المحدث المشهور بابن كثير، والمعروف بتاريخ ابن كثير. وشهاب الدين الإربدي، وشمس الدين البيطار المعبر، والشيخ جبريل الكردي، والشهاب محمد بن عبد الخالق بن عثمان بن مزهر الأنصاري الدمشقي المقري، والصدر الرئيس الفاضل أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم بن مصعب، والبدر محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، وعبد الله بن محمد بن علي، والقاضي ضياء الدين علي بن مسلم، وعبد الرحيم بن محمد بن يوسف السمهودي الخطيب الأديب، والقاضي جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الزرعي، والقاضي صدر الدين سليمان بن هلال العسكري، وغير هؤلاء. وهؤلاء التلاميذ جميعهم قرأوا على الإمام النووي، والقراءة على «الشيخ» يسميها أكثر المحدثين «العرض» ويسميها بعضهم «عرض القراءة» لأن الطالب يُعْرِضُ على العالم ما يقرؤه كما يعرض القرآن على المقرىء. وهي أن يقرأ واحد على الشيخ، إما من حفظه أو من كتاب مقابل صحيح، والشيخ يصغي إليه معتمداً على حفظه أو على أصله، أو على نسخة مقابلة مصححة، وقد يكون المقابل غير الشيخ ممن يوثق به، كما قد يكون أكثر من واحد كل منهم لديه نسخة مقابلة مصححة[1]، يسمعون من يقرأ بحضرة الشيخ.

وشرط الإمام أحمد في القارىء أن يكون ممن يعرف ويفهم،

---

(١) لا تزال هذه الطريقة متبعة إلى عصرنا هذا في كثير من حلقات العلم العامة والخاصة، وبخاصة في العلوم الشرعية، وهي الطريقة الغالبة في تعليم (القراءة) في المدارس المختلفة.

وشرط إمام الحرمين في الشيخ أن يكون لو وقع من القارىء تحريف أو تصحيف لرده، وإلا لا يصح التحمل عنه. وقد أجاز الجمهور القراءة على الشيخ وروي عن بعضهم عدم قبول ذلك[1]، ومستند العلماء في جواز هذا النوع من التحمل حديث ضمام[2] بن ثعلبة أنه قال لرسول الله ﷺ: «الله أمرك أن تصلي الصلوات قال: نعم». قال: هذه القراءة على النبي ﷺ؛ أخبر ضمام قومه بذلك فـأجـازوه[3].

وهذا النوع من التحمل دون السماع من لفظ الشيخ. وروي عن كثير من العلماء أن القراءة على الشيخ والسماع منه بمنزلة واحدة. وفضل بعضهم القراءة على السماع[4]، وحجتهم أن الشيخ ربما غلط فيما يقرؤه بنفسه، فلا يرد عليه السامع، إما لأنه ليس من أهل المعرفة، أو لأن الغلط صادف موضع اختلاف بين أهل العلم فيه فيُتَوَهمُ ذلك الغلط مذهب الشيخ فيحمله عنه على وجه الصواب، أو أن هيبة الشيخ وجلاله تكون مانعاً من الرد عليه.

٩ ـ تلاميذ الإمام النووي بالإجازة

قبل البدء في الحديث عن العلماء الذين أخذوا عن الإمام النووي بالإجازة، سوف نتحدث عن هذه الإجازة، وإذا كانت هذه الإجازة لا تغني عن التلقي: كان التحمل في (السماع) من لفظ العالم، وفي

(١) المحدث الفاصل، فقرة (٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) ضمام: بكسر أوله مخففاً: ابن إسماعيل بن مالك المرادي، أبو إسماعيل المصري، صدوق وربما أخطأ. مات سنة خمس وثمانين.

(٣) فتح الباري (١/١٥٧)، وبوّب البخاري لهذا الحديث باباً بعنوان (القراءة والعرض على المحدّث).

(٤) الكفاية في علم الرواية للخطيب: ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(القراءة) بلفظ المتحمل أو غيره بحضرة العالم، وفي كلا هذين الطريقين أو النوعين من أنواع التحمل ينطق بالأحاديث المروية، سواء أكان ذلك مشافهة من العالم أم من غيره. وأما الإجازة فهي نوع جديد من أنواع التحمل لا يعدو اذنَ العالم برواية بعض مروياته المعينة لشخص أو لأشخاص معينين، من غير أن تقرأ جميع الأحاديث المجاز بها، لهذا أجازها بعض العلماء ولم يجزها آخرون[١]. ومثال الإجازة أن يقول المحدث لبعض طلابه: أجزتكم رواية كتاب البيوع من صحيح البخاري عني، وقد سمعته من فلان، أو أجزتكم رواية صحيح مسلم عني وقد سمعته عن فلان، من غير أن يقرأ شيئاً منه، أو أن يقرأ بعضه ويجيزهم بالباقي.

والإجازة في اللغة مأخوذة من جواز الماء الذي يُسقاه المال من الماشية والحرث، يقال: استجزت فلاناً فأجازني إذا سقاك ماء لأرضك أو ماشيتك، وممن أجاز (الإجازة) من المتقدمين: الحسن[٢] البصري، ونافع[٣] مولى بن عمر، والزهري[٤]، وربيعة[٥] بن أبي

(١) الكفاية: ص ٣١٤ ـ ٣١٧، واختصار علوم الحديث لابن كثير: ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد. مولى زيد بن ثابت. مات سنة عشر ومائة في شهر رجب.

(٣) نافع، أبو عبد الله المدني، مولى ابن عمر، ثقة ثبْت فقيه، مشهور، من الثالثة، مات سنة سبع عشرة ومائة، أو بعد ذلك.

(٤) الزُهْري أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب المدني. أحد الأعلام. قال ابن منجويه: رأى عشرة من الصحابة. مات سنة أربع وعشرين ومائة.

(٥) ربيعة بن أبي عبد الرحمن، التيمي مولاهم، أبو عثمان المدني، المعروف =

عبد الرحمن، ويحيى[١] بن سعيد الأنصاري، وإبراهيم[٢] بن اسحاق الحربي، وأبو نصر الوائلي وغيرهم.

قال شعبة بن الحجاج: لو صحت الإجازة لبطلت الرحلة، وكذلك طالما العلم يسأل العالم أن يجيزه رواية علمه فيجيزه ذلك.

ولم يجز العلماء المتقدمون (الإجازة) هكذا من غير قيد ولا شرط، بل اشترطوا أن يعرف المحدّث ما يجيز به، وأن تكون نسخة الطالب معارضة بأصل الراوي حتى كأنها هو، وأن يكون المستجيز من أهل العلم وعليه سمته، حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله، وقد روي ما يؤكد هذا عن كثير من المتقدمين كالحسن البصري، وابن شهاب الزهري، ومكحول[٣]، وابان بن عياش، وابن جريج[٤]، والإمام مالك[٥] وغيرهم.

بربيعة الرأي، واسم أبيه فرُّوخ، ثقة، فقيه مشهور. مات سنة ست وثلاثين.

(١) يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري المدني، من الخامسة، مات سنة أربع وأربعين أو بعدها.

(٢) إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق شيخ الإسلام. أحد الأعلام. مات سنة خمس وثمانين ومائتين في ذي الحجة.

(٣) مكحول الدمشقي أبو عبد الله الفقيه، أحد الأئمة. قال أبو حاتم: ما أعلم بالشام أفقه منه. مات سنة اثنتي عشرة ومائة.

(٤) عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج الأموي مولاهم، المكي، ثقة فقيه فاضل، وكان يدلّس ويرسل، من السادسة، مات سنة خمسين أو بعدها.

(٥) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبد الله، المدني، الفقيه، إمام دار الهجرة، رأس المتقين وكبير المثبتين، حتى قال =

وكل هذا يسوغ العمل بالإجازة، ويدفع شبه مانعيها. وقد اقتصرت الإجازة عند المتقدمين على خاصة الخاصة من ثقات طلاب الحديث، ولم تتعد الإجازة بعدة أحاديث أو بجزء أو كتاب، وكان بعضهم حين يجيز تلميذه يدله على نسخة أو نسخ موثوق بها[1]. ويؤكد هذا قول حافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر: (تلخيص هذا الباب أن الإجازة لا تجوز إلا لماهر بالصناعة، حاذق بها، يعرف كيف يتناولها، ويكون في شيء معين معروف لا يشكل إسناده، فهذا هو الصحيح من القول في ذلك والله أعلم)[2].

وقد كره كثير من المتقدمين ـ كالإمام مالك وغيره ـ الإجازة لمن ليس من أهل العلم، ولمن لم يعان طلبه والتعب فيه، كما كرهوا إجازة العلم الكثير في إقامة الطالب مدة يسيرة، والذي كان عليه التابعون وأتباعهم وكثير من أهل العلم من بعدهم ألا يجيزوا إلا أهل الثقات الماهرين بالصناعة، والذين يعرفون قدر تناولها، متى كانت الإجازة في شيء معروف لا يشكل إسناده[3]. ثم ما لبث أن تساهل بعض المتأخرين في الإجازة فتوسعوا بها مما أدى إلى تقاصرهم طلاب العلم عن سماع الكتب سماعاً صحيحاً على الحفاظ والمؤلفين.

= البخاري: أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر. مات سنة تسع وسبعين.

(١) الكفاية: ص ٣١٨ ـ ٣٢٥.

(٢) المحدث الفاصل فقرة (٥٣٢).

(٣) جامع بيان العلم: ٢/ ١٨٠.

والإجازة على أنواع عدة، وأعلى صورها أن يحمل العالم كتاباً أو كتباً من كتبه أو مروياته ويقول للطالب: هذا الكتاب أو هذه الكتب سمعتها من فلان، وإني أجيز لك روايتها عني. وهذا ما يسمونه إجازة من معين ـ وهو الشيخ ـ لمعين ـ وهو الطالب ـ في معين، وهو الكتاب المجاز به. وقد استخرج بعض العلماء ثمانية أنواع من الإجازة، وبلغ بعضهم بهذه الأنواع تسعة، وكلها لا تعدو فقدَ صفة أو أكثر من صفات النوع الأول، وهو (الإجازة من معين لمعين في معين).

ولا يهمنا بسط هذه الأنواع التي تكلّفت كتب علوم الحديث ببيانها، وبخاصة أنها عرفت بعد القرن الرابع الهجري.

وممن أخذ عن النووي رحمه الله بالإجازة كثيرين منهم: أبو نعيم أحمد بن التقي عبيد الأسعردي، والسيف أبو بكر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدر بن القماح، ولناصر الدين محمد بن كشتغدي، وأجاز لجمال الدين بن العطار. وغير هؤلاء.

وقد أجاز الإمام النووي رواية شرح مسلم لجميع المسلمين[١].

---

(١) مفتاح السعادة: ١/ ٣٩٨.

الفصل الثالث

مؤلفات الإمام النووي

مؤلفات الإمام النووي

الإمام النووي رحمه الله أحد الفقهاء المحدثين، وشيخ الإسلام والمسلمين في عصره، فضائله جمة، ومحامده عزيزة، ومحاسنه كثيرة، ومؤلفاته عديدة، فقد حكي[1] عنه: إنه كان يكتب حتى تكل يده فتعجزه، فيضع القلم ثم ينشد:

لئن كان هذا الدمع يجري صبابة
على غير سُعدي فهو دمع مضيع

وقال اليافعي[2]: ولا شك أن الإمام محي الدين النووي مبارك له في عمره، ولقد بلغني أنه حصلت له نظرة جمالية من نظرات الحق سبحانه بعد موته، فظهرت بركتها على كتبه، فحظيت بقبول العباد والنفع في سائر البلاد.

وقال تلميذه ابن العطار[3]: وانتفع الناس بسائر البلاد بتصانيفه، وأكبوا على تحصيل تواليفه، حتى رأيت من كان يشنؤها في حياته، مجتهداً في تحصيلها، والانتفاع بها بعد موته، فرحمه الله ورضي عنه،

---

(١) السخاوي: ص ٢٤.

(٢) مرآة الجنان: ٤/ ١٨٥.

(٣) تحفة الطالبين: ٩/١.

وجمع بيننا وبينه في جناته. وقد ألّف النووي في علوم شتى: الفقه، والحديث، وشرح الحديث، والمصطلح، واللغة والتراجم، والتوحيد، وغير ذلك، واتسم أسلوب النووي بالعذوبة والسهولة في الألفاظ.

ومؤلفات النووي ثلاثة أقسام: قسم أنجزه وأتمه، وقسم أدركته الوفاة قبل أن يتمه، وقسم غسل أوراقه ـ أي محاها ـ وكانوا يغسلونها لأمر ما ولا يتلفونها لحاجتهم إلى ورقها.

وتصانيفه كثيرة، منها: شرح صحيح مسلم، والإرشاد، والتقريب في علوم الحديث، وتهذيب الأسماء واللغات، والمناسك الصغرى، والكبرى، والتبيان في آداب حملة القرآن، ومنهاج الطالبين، وبستان العارفين، وخلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، وروضة الطالبين، وعمدة المتقين، وشرح المهذب، ورياض الصالحين، وحلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار، ومناقب الشافعي، ومختصر أسد الغابة، والفتاوى، وأدب المفتي والمستفتي، ومختصر آداب الاستسقاء، ورؤوس المسائل، وتحفة طلاب الفضائل، والترخيص في الإكرام والقيام، ومسألة تخميس الغنائم، ومختصر التذنيب، ومسألة نية الاعتراف، والأربعون النووية. وسوف نتحدث عن هذه الكتب إذا مَكّنَا الله سبحانه وتعالى. وسوف نبدأ بشرح كتاب الإمام مسلم بن الحجاج، وشرحه يسمى «بالمنهاج».

شرح مسلم:

شَرَح الإمام النووي «صحيح مسلم» بطريقة لم يدع عليه سؤال من

عام ولا خاص، وأظهر فيه معانيه واضحة جَليَّة، فلا يستطيع قطب العلماء في زمن من الأزمان أن يجد عليه ثغرة يتفوّه بها على هذا الشرح الجلي، فكلّنا يجد فيه الجواب من شرح للمعنى، ومن علوم لغة، وما يتعلق بها، ومما يستنبط من الحديث أو ظاهره، مع فوائد عظام ومنافع لا يستهان بها.

يقول الإمام النووي رحمه الله في مقدمة «كتاب صحيح» بشرحه «أي بشرح النووي»: إن الاشتغال بالعلم من أفضل القرب وأجل الطاعات، وأهم أنواع الخير وآكد العبادات، وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات، وشمر في إدراكه والتمكن فيه أصحاب الأنفس الزكيات، وبادر الاهتمام به المسارعون إلى الخيرات، وسابق إلى التحلي به مستبقو المكرمات، وقد تظاهر على ما ذكرته جمل من الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحة المشهورات، وأقاويل السلف رضي الله عنهم النيرات، ولا ضرورة إلى ذكرها هنا لكونها من الواضحات الجليات، ومن أهم أنواع العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبويات، أعني معرفة متونها صحيحها[1] وحسنها[2] وضعيفها[3]

(١) الحديث الصحيح هو المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذاً ولا معللاً.

(٢) الحديث الحسن هو، ما توفرت فيه شروط الحديث الصحيح جميعها، إلا أن رواته كلهم أو بعضهم أقل ضبطاً من رواة الصحيح. ويمكن أن نعرف الحديث الحسن مرة ثانية: بأنه ما اتصل سنده بعدل خف ضبطه من غير شذوذ ولا علة.

(٣) الحديث الضعيف هو، كل حديث لم تجتمع فيه صفات القبول، وقال أكثر العلماء هو ما لم يجمع صفة الصحيح والحسن.

متصلها ومرسلها[١]، ومنقطعها[٢]، ومعضلها[٣]، ومقلوبها[٤]، ومشهورها[٥]، وغريبها[٦]،

---

(١) الحديث المرسل هو، ما رفعه التابعي إلى الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، صغيراً كان التابعي أو كبيراً.
والمرسل عند الفقهاء والأصوليين ما رفعه غير الصحابي. وقد سمي بالمرسل لأن رواية أطلقه من غير أن يقيده بالصحابي الذي رواه عنه.

(٢) الحديث المنقطع هو، ما سقط من سنده راو واحد في موضع أو أكثر، أو ذكر فيه راو مبهم، وسواء كان هذا هو الراوي في أوله أو في وسطه أو في آخره.

(٣) المعضل هو ما سقط من سنده راويان متتاليان أو أكثر، ومنه ما يرسله تابع التابعي، فهو كالمنقطع بل هو دونه، ويساويه في سوء الحال إذا كان الانقطاع في أكثر من موضع.

(٤) هو الحديث الذي انقلب فيه على راو بعض متنه، أو اسم راو في سنده، أو سند متن لآخر. وقد يكون القلب في الإسناد بقلب اسم راو، كمرة بن كعب، وكعب بن مرة، لأن اسم أحدهما اسم أبي الآخر. وقد يكون الحديث من طريق راو معروف به، أو بإسناد مشهور، فيبدل بنظير الراوي من طبقته، أو بإسناد غير إسناده سهواً.

(٥) الحديث المشهور هو، ما اشترك في روايته ثلاثة أو أكثر من شيخ، وقال ابن حجر: المشهور ما له طرق محصورة بأكثر من اثنين، ولم يبلغ حد التواتر. وقد سمي بذلك لوضوحه، وسماه جماعة من أئمة الفقهاء (المستفيض) لانتشاره، من فاض الماء فيضاً. ومنهم من غاير بين المستفيض والمشهور، بأن المستفيض يكون في ابتدائه وانتهائه سواء، والمشهور أعم من ذلك، ومنهم من عكس ذلك.

(٦) قال ابن حجر الغريب: هو ما انفرد بروايته شخص واحد في أي موضع وقع التفرد به من السند. وقد تكون الغرابة في أصل السند، أي الموضع الذي يدور الإسناد عليه، ولو تعددت الطرق إليه، وهو طرفه الذي فيه الصحابي أو لا يكون كذلك، بأن يكون التفرد في أي طبقة من طبقات السند، كأن يرويه =

وعزيزها[1]، متواترها[2] وآحادها[3] وأفرادها معروفها وشاذها[4]، ومنكرها[5]،

= عن الصحابي أكثر من واحد ثم ينفرد بروايته عن واحد منهم شخص واحد، فالأول الفرد المطلق، والثاني الفرد النسبي. والغريب على ثلاثة أنواع، غريب المتن والإسناد، وغريب الإسناد كالحديث المعروف متنه برواية جماعة من الصحابة، والغريب بعض المتن.

(١) الحديث العزيز هو، ما انفرد بروايته عن راويه اثنان، فلا يرويه أقل من اثنين عن اثنين، ولو رواه بعد ذلك عن الاثنين جماعة لا يخرج عن كونه عزيزاً، ولكن تنضم إليه صفة أخرى، وهي الشهرة، فهو عزيز لرواية اثنين عن راويه، مشهور لرواية جماعة عنهما، أو عن أحدهما فيسمى حينئذ عزيزاً مشهوراً.

(٢) المتواتر هو، ما رواه جماعة يستحيل في العادة أن يتواطؤوا على الكذب وأسندوه إلى شيء محسوس. وهو على قسمين، متواتر لفظاً ومعنى: وهو ما اتفق فيه الرواة على معنى كلي وانفرد كل حديث بمعناه الخاص. والمتواتر معنى: ما اتفق فيه الرواة على معنى كلي وانفرد كل حديث بمعناه الخاص.

(٣) والآحاد هو، ما سوى المتواتر. وتنقسم باعتبار الطرق إلى ثلاثة أقسام: مشهور وعزيز وغريب.

(٤) أقدم من عرّف الشاذ الإمام الشافعي رحمه الله قال: ليس الشاذ من الحديث أن يروي الثقة حديثاً لم يروه غيره، وإنما الشاذ من الحديث أن يروي الثقات حديثاً فيشذ عنهم واحد فيخالفهم.
ثم توافق المحدثون بعد الشافعي على أن الشاذ هو ما رواه المقبول مخالفاً لمن هو أولى منه.

(٥) المنكر هو ما رواه الضعيف مخالفاً الثقات، ومن ثم كان شرط المنكر تفرد الضعيف والمخالفة، فلو تفرد راو ضعيف بحديث لم يخالف فيه الثقات لا يكون حديثه منكراً ـ بل ضعيفاً ـ فلو خولف برواية ثقة، فالراجح يقال له «المعروف» والمرجوح هو المنكر. =

ومعللها[1]، وموضوعها[2]، ومدرجها[3]، وناسخها[4] وخاصها وعامها، ومجملها ومبينها ومختلفها وغير ذلك من أنواعها المعروفات.

ومعرفة علم الأسانيد أعني معرفة حال رجالها وصفاتهم المعتبرة، وضبط أسمائهم وأنسابهم ومواليدهم ووفياتهم وغير ذلك من الصفات. ومعرفة التدليس[5] والمدلسين وطرق الاعتبار والمتابعات. ومعرفة حكم اختلاف الرواة في الأسانيد، والمتون، والوصل،

= وعلى هذا فالشاذ والمنكر يجتمعان في اشتراط المخالفة، ويفترقان في أن الشاذ رواية ثقة أو صدوق، والمنكر راويه ضعيف.

(١) المعلل هو، الحديث الذي اكتشفت فيه علة قادحة، وإن كان ظاهره السلامة.

(٢) الحديث الموضوع هو، ما نسب إلى الرسول ﷺ اختلاقاً وكذباً مما لم يقله أو يفعله أو يقره. وقال بعضهم: هو المختلف المصنوع.

(٣) الحديث المدرج هو، الذي يطلع فيه على زيادة ليست منه. والإدراج في اللغة من أدرج الشيء في الشيء أي أدخله فيه، وضمنه إياه.

(٤) النسخ عند أهل الأصول هو، رفع الشارع حكماً شرعياً بدليل شرعي متراخ عنه. ومثال النسخ قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

(٥) التدليس هو، سياق الحديث بسند يوهم أنه على مما كان عليه في الواقع. وهو على قسمين: تدليس الإسناد، وتدليس الشيوخ. وتدليس الإسناد أن يروي عمن لقيه ما لم يسمعه من قوله أو يره من فعله بلفظ يوهم أنه سمعه أو رآه مثل: قال أو فعل أو عن فلان أن فلاناً قال أو فعل نحو ذلك. وتدليس الشيوخ: أن يسمي الراوي شيخه أو يصفه بغير ما اشتهر به فيوهم أنه غيره إما لكونه أصغر منه فلا يحب أن يظهر روايته عمن دونه وإما ليظن الناس كثرة شيوخه وإما لغيرهما من المقاصد.

والإرسال، والوقف[1]، والرفع، والقطع[2]، والانقطاع، وزيادات الثقات. ومعرفة الصحابة[3] والتابعين[4] وأتباعهم[5]، ومن بعدهم رضي الله عنهم وعن سائر المؤمنين والمؤمنات، وغير ما ذكرته من علومها المشهورات. ودليل ما ذكرته أن شرعنا مبني على الكتاب والسنن المرويات.

وعلى السنن مدار أكثر الأحكام الفقهيات، فإن أكثر الآيات الفروعيات مجملات، وبيانها في السنن المحكمات. وقد اتفق العلماء

---

(١) الموقوف هو، ما روي عن الصحابي من قول له أو فعل أو تقرير، متصلاً كان أو منقطعاً. واشترط بعضهم أن يكون متصل الإسناد إلى الصحابي غير منقطع. ويستعمل الموقوف في غير الصحابي مقيداً، فيقال وقفه فلان على الزهري، أو على مالك وإذا أطلق لا يراد به إلا ما انتهى إلى الصحابي فقط.

(٢) المقطوع هو، ما روي عن التابعين موقوفاً عليهم من أقوالهم أو أفعالهم، وجمعه مقاطع ومقاطيع. وقد استعمل بعضهم المقطوع في المنقطع الذي لم يتصل سنده، وذلك قبل استقرار هذا الاصطلاح. وإذا نقل عن التابعي قوله أمرنا بكذا أو نهينا عن كذا أو من السنة كذا. قال بعضهم: له حكم المرسل، وقال آخرون: فيه احتمالان إما أنه موقوف أو مرسل مرفوع.

(٣) الصحابي هو، من اجتمع بالنبي ﷺ أو رآه مؤمناً به ومات على ذلك. فيدخل فيه من ارتد ثم رجع إلى الإسلام كالأشعث بن قيس فإنه كان ممن ارتد بعد وفاة النبي ﷺ فجيء به أسيراً إلى أبي بكر فتاب وقبل منه أبو بكر رضي الله عنه. ويخرج منه من آمن بالنبي ﷺ في حياته ولم يجتمع به كالنجاشي، ومن ارتد ومات على ردته كعبد الله بن خطل قتل يوم الفتح وربيعة بن أمية بن خلف ارتد في زمن عمر ومات على الردة.

(٤) التابعي هو، من اجتمع بالصحابي مؤمناً بالنبي ﷺ ومات على ذلك.

(٥) أتباع التابعين هم الطبقة الثالثة بعد الصحابة والتابعين.

على أن من شرط المجتهد من القاضي والمفتي أن يكون عالماً بالأحاديث الحكميات. فثبت بما ذكرناه أن الاشتغال بالحديث من أجل العلوم الراجحات، وأفضل أنواع الخير وآكد القربات، وكيف لا يكون كذلك وهو مشتمل مع ما ذكرناه على بيان حال أفضل المخلوقات. عليه من الله الكريم أفضل الصلوات والسلام والبركات، ولقد كان أكثر اشتغال العلماء بالحديث في الأعصار الخاليات. حتى لقد كان يجتمع في مجلس الحديث من الطالبين ألوف متكاثرات، فتناقض ذلك، وضعفت الهمم فلم يبق إلا آثار من آثارهم قليلات. والله المستعان على هذه المصيبة وغيرها من البليات، وقد جاء في فضل إحياء السنن المماتات أحاديث كثيرة معروفات مشهورات، فينبغي الاعتناء بعلم الحديث والتحريض عليه لما ذكرنا من الدلالات، ولكونه أيضاً من النصيحة لله تعالى وكتابه ورسوله ﷺ وللأئمة والمسلمين والمسلمات، وذلك هو الدين كما صح عن سيد البريات صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وذريته وأزواجه الطاهرات، ولقد أحسن القائل من جمع أدوات الحديث استنار قلبه، واستخرج كنوزه الخفيات، وذلك لكثرة فوائده البارزات والكامنات، وهو جدير بذلك فإنه كلام أفصح الخلق، ومن أعطي جوامع الكلمات. صلى الله عليه وسلم صلوات متضاعفات.

وأصح مصنف في الحديث بل في العلم مطلقاً الصحيحان للإمامين القدوتين، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، رضي الله عنهما فلم يوجد لهما نظير في المؤلفات. فينبغي أن يعتنى بشرحهما وتشاع فوائدهما ويتلطف في

استخراج دقائق العلوم من متونها وأسانيدها لما أظهرنا من الحجج الظاهرات، وأنواع الأدلة المتظاهرات.

فأما صحيح البخاري رحمه الله فقد جمعت في شرحه جملاً مستكثرات، مشتملة على نفائس من أنواع العلوم بعبارات وجيزات. وأنا مشمر في شرحه راج من الله الكريم في إتمامه المعونات.

وأما صحيح مسلم رحمه الله فقد استخرت الله تعالى الكريم الرؤوف الرحيم في جمع كتاب في شرحه متوسط بين المختصرات والمبسوطات، لا من المختصرات المخلات، ولا من المطولات المملات، ولولا ضعف الهمم، وقلة الراغبين وخوف عدم انتشار الكتاب لقلة الطالبين للمطولات، لبسطته فبلغت به ما يزيد على مائة من المجلدات، من غير تكرار ولا زيادات عاطلات، بل ذلك لكثرة فوائده وعظم عوائده الخفيات والبارزات، وهو جدير بذلك فإنه كلام أفصح المخلوقات، صلى الله عليه وسلم صلوات دائمات.

لكني أقتصر على التوسط وأحرص على ترك الإطالات، وأوثر الاختصار في كثير من الحالات، فأذكر فيه إن شاء الله جملاً من علومه الزاهرات. من أحكام الأصول والفروع والآداب والإشارات الزهديات، وبيان نفائس من أصول القواعد الشرعيات، وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية وأسماء الرجال وضبط المشكلات، وبيان أسماء ذوي الكنى وأسماء آباء الأبناء والمبهمات، والتنبيه على لطيفة من حال بعض الرواة وغيرهم من المذكورين في بعض الأوقات.

واستخراج لطائف من خفيات علم الحديث من المتون والأسانيد المستفادات، وضبط جمل من الأسماء المؤتلفات والمختلفات،

والجمع بين الأحاديث التي تختلف ظاهراً، ويظن بعض من لا يحقق صناعتي الحديث والفقه وأصوله كونها متعارضات، وأنبه على ما يحضرني في الحال في الحديث من المسائل العمليات، وأشير إلى الأدلة في كل ذلك إشارات، إلا في مواطن الحاجة إلى البسط للضرورات، وأحرص في جميع ذلك على الإيجاز وإيضاح العبارات، وحيث أنقل شيئاً من أسماء الرجال واللغة وضبط المشكل والأحكام والمعاني وغيرها من المنقولات.

فإن كان مشهوراً لا أضيفه إلى قائليه لكثرتهم إلا نادراً لبعض المقاصد الصالحات، وإن كان غريباً أضفته إلى قائليه إلا أن أذهل عنه في بعض المواطن لطول الكلام، أو كونه مما تقدم بيانه في الأبواب الماضيات، وإذا تكرر الحديث أو الاسم أو اللفظة من اللغة ونحوها بسطت المقصود منه في أول مواضعه، وإذا مررت على الموضع الآخر ذكرت أنه تقدم شرحه وبيانه في الباب الفلاني من الأبواب السابقات. وقد اقتصر على بيان تقدمه من غير إضافة أو أعيد الكلام فيه لبعد الموضع الأول، أو ارتباط كلام أو نحوه أو غير ذلك من المصالح المطلوبات.

وأقدم في أول الكتاب جملاً من المقدمات، مما يعظم النفع به إن شاء الله تعالى، ويحتاج إليه طالبو التحقيقات، وأرتب ذلك في فصول متتابعات، ليكون أسهل في مطالعته وأبعد من السآمات. وأنا أستمد المعونة والصيانة واللطف والرعاية من الله الكريم رب الأرضين والسموات. مبتهلاً إليه سبحانه وتعالى أن يوفقني ووالدي ومشايخي وسائر أقاربي وأحبابي، ومن أحسن إلينا بحسن النيات، وأن ييسر لنا

الطاعات، وأن يهدينا لها دائماً في ازدياد حتى الممات، وأن يجود علينا برضاه ومحبته ودوام طاعته والجمع بيننا في دار كرامته وغير ذلك من أنواع المسرات، وأن ينفعنا أجمعين ومن يقرأ في هذا الكتاب وأن يجزل لنا المثوبات. وأن لا ينزع منا ما وهبه لنا ومنّ به علينا من الخيرات، وأن لا يجعل شيئاً من ذلك فتنة لنا وأن يعيذنا من كل شيء من المخالفات. إنه مجيب الدعوات[١].

١ ـ رواية الإمام النووي لصحيح مسلم:

قال الإمام النووي: أما إسنادي فيه (أي في صحيح مسلم) فأخبرنا بجميع صحيح مسلم رحمه الله الشيخ الأمين العدل الرضى أبو إسحاق إبراهيم بن أبي حفص عمر بن مضر الواسطي رحمه الله بجامع دمشق حماها الله وصانها وسائر بلاد الإسلام وأهله. قال أخبرنا الإمام ذو الكنى أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح منصور بن عبد المنعم الفراوي. قال أخبرنا أبو الحسين عبد الغافر الفارسي. قال أنا أبو أحمد محمد ابن عيسى الفضل الفراوي. قال أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه أنا الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج رحمه الله وهذا الإسناد الذي حصل لنا ولأهل زماننا ممن يشاركنا فيه في نهاية من العلو بحمد الله تعالى فبيننا وبين مسلم ستة. وكذلك اتفقت لنا بهذا العدد رواية الكتب الأربعة التي هي تمام الكتب الخمسة التي هي أصول الإسلام أعني صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود

---

(١) مقدمة صحيح مسلم: ١/ ٣ ـ ٦.

والترمذي والنسائي. وكذلك وقع لنا بهذا العدد مسندا الإمامين أبوي عبد الله أحمد بن حنبل ومحمد بن يزيد أعني ابن ماجه، ووقع لنا أعلى من هذه الكتب، وإن كانت عالية موطأ الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس فبيننا وبينه رحمه الله سبعة، وهو شيخ شيوخ المذكورين كلهم فتعلو روايتنا لأحاديثه برجل، ولله الحمد والمنة، وحصل في روايتنا لمسلم لطيفة، وهو أنه إسناد[١] مسلسل بالنيسابوريين وبالمعمرين، فإن رواته كلهم معمرون وكلهم نيسابوريين من شيخنا أبي إسحاق إلى مسلم، وشيخنا وإن كان واسطياً فقد أقام بنيسابور[٢] مدة طويلة والله أعلم.

٢ ـ الإرشاد:

هو في الأصل كتاب «علوم الحديث» لأبي عمرو بن الصلاح[٣] المشتهر بمقدمة ابن الصلاح، ولما تولى أبو عمرو تدريس الحديث بالمدرسة الأشرفية، وجمع ما فيه ما تفرق في غيره من كتب الخطيب[٤] وغيره وذكر فيه خمسة وستين نوعاً، وأملاه شيئاً بعد

---

(١) مقدمة صحيح مسلم: ١/ ٦.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٧.

(٣) ابن الصلاح هو، الإمام الحافظ شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الشيخ صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكُردي الشهْرزُوري الشّافعي. صاحب كتاب «علوم الحديث». مات في خامس عشري ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

(٤) الخطيب الحافظ الكبير محدث الشام والعراق أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي صاحب التصانيف. مات سابع ذي الحجة سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

شيء، ولهذا لم يحصل ترتيبه على الوضع المناسب، ولكثرة جمعه وتحريره انتشر واشتهر، فكفّ عليه العلماء، بالدرس والاختصار والشرح والنظم والمعارضة والانتصار، وأصبح العمدة لمن جاء بعده.

وقد اختصره الإمام النووي في كتابه «الإرشاد».

٣ ـ التقريب في أصول الحديث:

بعد أن اختصر الإمام النووي مقدمة ابن الصلاح في كتابه «الإرشاد» قام باختصار «الإرشاد» في كتابه «التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير»، وهو الذي شرحه جلال الدين[1] السيوطي في كتابه «تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي».

قال السيوطي في مقدمته: رأيت كتاب التقريب والتيسير لشيخ الإسلام الحافظ ولي الله تعالى: أبي زكريا النواوي كتاباً جلَّ نفعه، وعلا قدره، وكثرت فوائده وغزرت للطالبين موائده.

٤ ـ تهذيب الأسماء واللغات:

وضع الإمام النووي رحمه الله هذا الكتاب لتوضيح الأسماء واللغات في كتب الفقه على مذهب الإمام الشافعي وهذه الكتب هي:

المهذب والتنبيه ـ لأبي إسحاق الشيرازي.

والروضة ـ للإمام النووي.

والوسيط والوجيز ـ للإمام الغزالي.

ومختصر المزني.

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر محمد جلال الدين السيوطي. إمام حافظ مؤرخ نحوي، له مئات المصنفات في علوم الشريعة واللغة. توفي سنة ٩١١ هـ.

وهذا كتاب دقيق مضبوط، وتوفي عنه النووي قبل أن يتمه، وقد تم تلميذه المزِي[1] رحمه الله قطعة كبيرة منه.

٥ ـ المناسك الكبرى والصغرى:

وهذان من أجلّ ما كتب في المناسك، وبيّن فيهما النووي رحمه الله أحكام الحج ومناسكه، ومفسداته وواجباته، ووضح فيه الإمام النووي كل ما يتعلق بالحج من حين البدء فيه، إلى الانتهاء منه.

٦ ـ التبيان في آداب حملة القرآن:

قال الإمام النووي رحمه الله: رأيت أهل بلدتنا دمشق حماها الله تعالى وصانها وسائر بلاد الإسلام، مكثرين من الاعتناء بتلاوة القرآن العزيز تعلماً وتعليماً، وعرضاً ودراسة في جماعات وفرادى، مجتهدين في ذلك بالليالي والأيام ـ زادهم الله حرصاً عليه وعلى جميع أنواع الطاعات ـ مريدين وجه الله ذي الجلال والإكرام. فدعاني ذلك إلى جمع مختصر في آداب حملته وأوصاف حفاظه وطلبته. فقد أوجب الله سبحانه وتعالى النصيحة لكتابه. ومن النصيحة له بيان آداب حملته وطلابه، وإرشادهم إليها وتنبيههم عليها، وأوثر فيه الاختصار، وأحاذر التطويل والإكثار. وأقتصر في كلّ باب على طرَف من أطرافه. وأرمز من كلّ ضرب من آدابه إلى بعض أصنافه، فلذلك أكثر ما أذكره بحذف أسانيده، وإن كانت أسانيده بحمد الله عندي من المحاضرة

---

(١) الحافظ المزي صاحب «تهذيب الكمال» الذي اختصره ابن حجر في كتابه «تهذيب التهذيب».

العتيدة، فإن مقصودي التنبيه على أصل ذلك، والإشارة بما أذكره إلى ما حذفته مما هنالك. والسبب في إيثار اختصاره إيثاري حفظه وكثرة الانتفاع به وانتشاره. ثم ما وقع من غريب الأسماء واللغات في الأبواب أفرده بالشرح والضبط الوجيز الواضح، على ترتيب وقوعه في بابه [في آخر الكتاب ليكمل انتفاع صاحبه، ويزول الشك عن طالبه]، ويندرج في ضمن ذلك، وفي خلال الأبواب جمل من القواعد، ونفائس من مهمات الفوائد، وأبيّن الأحاديث الصحيحة والضعيفة مضافات إلى من رواها من الأئمة الأثبات، وقد أذهل عن نادر من ذلك في بعض الحالات.

وممّا يُعرف بين أهل العلم جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ومع هذا فإن الإمام النووي اقتصر على الصحيح، ولا يذكر الضعيف إلا في بعض الحالات، وهذا الكتاب على الرغم من قدر حجمه إلا أنه كتاب نفيس لا يستغنى عنه، خصوصاً القارىء والمقرىء[1].

والكتاب جمل من فضائل تلاوة القرآن وحملته، وإكرام أهل القرآن والنهي عن إيذائهم، ويشمل الكتاب الخلق القرآني لحامله، ومعلّمه، ويحتوي الكتاب على آيات وسور مستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة.

٧ ـ منهاج الطالبين:

أصل هذا الكتاب «المحرر» للرافعي، في الفقه الشافعي، وقد

---

(١) السخاوي: ص ١٢.

اختصره الإمام النووي وسمّاه «المنهاج»، وهو من أفضل كتب الفقه فائدة وتداولاً بين العلماء والمحققين، وللإمام النووي عليه تصحيحات، وتوفي الإمام النووي قبل أن يتمّه[1]. وقال الشيخ أبو عبد الله الجياني النحوي، وذكر المنهاج: والله لو استقبلت من عمري ما استدبرت لحفظته. . وأثنى على عذوبة ألفاظه، وحسن اختياره[2].

وقد اهتم بهذا الكتاب عديد من العلماء الذين قاموا بشرحه والتعليق عليه.

٨ ـ خلاصة الأحكام في مهمات السنين وقواعد الإسلام:

توفي الإمام النووي رحمه الله قبل أن يتمّ هذا الكتاب، وقد وصل فيه إلى أثناء الزكاة، قال ابن الملقن[3]: رأيتها بخطه ولو كملت كانت في بابها عديمة النظر.

٩ ـ روضة الطالبين:

قال الأذرعي[4]: «هي عمدة أتباع المذهب في هذه الأمصار، بل سار ذكرها في النواحي والأقطار، فصارت كتاب المذهب المطول، وإليها المفزع في النقل وعليها المعول، فإليها يلجأ الطالب النبيه،

---

(١) تحفة الطالبين: ١١/أ.

(٢) المصدر السابق: ١١/ب.

(٣) ابن الملقن هو: عمر بن علي بن أحمد الأنصاري من علماء الشافعية، ومن كبار المحدثين والفقه وتاريخ الرجال. كانت وفاته سنة ٨٠٤ هـ.

(٤) الأذرعي هو: أحمد بن حمدان بن أحمد أبو العبّاس شهاب الدين الأذرعي، علامة في الفقه الشافعي. توفي سنة ٧٨٣ هـ.

وعليها يعتمد الحاكم في أحكامه والمفتي في فتاويه، وما ذاك إلا لحسن النية وإخلاص الطوية».

وكتاب «الروضة» من الكتب الفقهية الكبيرة في المذهب الشافعي، وقد اختصرها الإمام النووي رحمه الله من كتاب الإمام الرافعي رحمه الله «الشرح الكبير». وقد ألّف الإمام النووي على الروضة كتاب (دقائق الروضة) وفاجأته المنية فلم يستطع تتمته، وقد وصل فيه إلى أثناء الصلاة.

١٠ ـ المجموع شرح المهذب:

من أفضل كتب الفقه الشافعي الذي ألّفه الإمام النووي، ولكن وافته المنية قبل أن يتمّه. قال الإمام الذهبي: إنه في غاية الحسن والجودة، وقال العماد ابن كثير في طبقات الشافعية له: «سلك فيه طريقة وسطة، حسنة، مهذبة، سهلة، جامعة لأشتات الفضائل وعيون المسائل، ومجامع الأوائل، ومذاهب العلماء ومفردات الفقهاء، وتحرير الألفاظ، ومسالك الأئمة الحفاظ، وبيان صحة الحديث من سقمه، ومشهورة من عكسه. وبالجملة فهو كتاب ما رأيت على منواله لأحد من المتقدمين، ولا حذا على مثاله متأخر من المصنفين». وقال العثماني قاضي صفد: إنه لا نظير له، لم يصنف مثله، ولكنه ما أكمله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إذ لو أكمله ما احتيج إلى غيره، وبه عرف قدره واشتهر فضله.

و «شرح المهذب» ألّفه الإمام أبي اسحاق الشيرازي شيخ العلماء في عصره، ألّفه على طريقة ذكر الدليل مع كل مسألة، وقام النووي بشرحه، ولكن توفّاه الله قبل أن يتمه.

١١ ـ رياض الصالحين:

وهو كتاب من أفضل الكتب في حديث رسول الله ﷺ، وهو أول كتاب في علم الشريعة اشتريته من مالي، وأنا طالب علم مبتدىء، لم أستطع أن أميّز بين الكتب وبعضها، إلاّ ما أسمعه من الشيخ، وهذا الكتاب خاصة سمّينا على اسمه مسجد بالمنصورة بجوار سوق الجملة «مسجد رياض الصالحين» وكنّا نذهب إلى هذا المسجد لمجالسة الشيوخ داخل حلقات العلم.

وقد بلغ هذا الكتاب ثقة الجميع، وانتشر انتشاراً عظيماً، ووضعه العوام والخواص بين كتب مكتباتهم، لأنه كِتاب جليل كثير الخير، جمع النفع والبركة، وهو كتاب قال عنه النووي في مقدمته: «فرأيت أن أجمع مختصراً من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة، جامعاً للترغيب والترهيب وسائر أنواع آداب السالكين من أحاديث الزهد، ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وطهارات القلوب وعلاجها، وصيانة الجوارح وعلاجها وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين. وألتزم فيها ألا أذكر إلا حديثاً صحيحاً من الواضحات، مضافاً إلى الكتب الصحيحة المشهورات وأصدِّر الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات، وأوشح ما يحتاج إلى ضبط أو شرح أو معنى خفي بنفائس من التنبيهات».

وقد وجدنا هذا شُرح أكثر من مرة، وخرّجت أحاديثه، وطبع في مجلد كبير مرة، وفي مجلدين كبيرين أخرى.

١٢ ـ حلية الأبرار وشعائر الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار:

صنّف العلماء في عمل اليوم والليلة والدعوات والأذكار كتباً كثيرة، أفردوها بالتأليف، مطوَّلة ومختصرة، ومنهم من ذكرها في ثنايا مؤلفاتهم، وعقدوا لها فصولاً خاصة بها، ومن أحسن ما ألف في هذا الباب كتاب «حلية الأبرار» الذي نحن بصدد الحديث عنه، وهو كتاب عظيم، جمع فيه مؤلفه ما يحتاج إليه المسلم في حياته من الأذكار والدعوات والآداب التي لا غنى له عنها: من أذكار الصباح والمساء، والدعوات للأمور العارضات، وما يتعلّق بالصلاة والصيام والحج والجهاد، وآداب تلاوة القرآن، وما يتعلق بحمد الله تعالى، والصلاة على رسوله ﷺ، وأذكار المرض والموت، وآداب الأكل والشرب، وأذكار المسافر، وآداب السلام والاستئذان، وتشميت العاطس، وأذكار النكاح وما يتعلق به، وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ اللسان وما يتعلق بالغيبة والنميمة، وما يكره من الألفاظ المذمومة التي اعتادها كثير من الناس، ثم ذكر في آخر الكتاب بعض الدعوات الجامعة، وآداب الدعاء، وختم الكتاب بباب الاستغفار، وضم إليه ثلاثين حديثاً عليها مدار الإسلام، وقد فرغ من تأليفه ـ كما رآه الحافظ السخاوي في نسخة مقروءة عليه ـ في شهر المحرم سنة (٦٦٥ هـ) سوى أحرف ألحقها، وقال: أجزت روايته لجميع المسلمين[١].

---

(١) السخاوي: ص ١٢.

١٣ ـ مناقب الشافعي:

أساس هذا الكتاب ألّفه الإمام البيهقي[1] في مجلدين، واختصره الإمام النووي في مجلد واحد.

ومن العلماء الذين كتبوا عن مناقب الإمام الشافعي شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني[2] في كتاب سمّاه: «معالي التأسيس في مناقب محمد بن ادريس».

١٤ ـ مختصر أسد الغابة:

نبّه عليه الإمام النووي رحمه الله في مصنفه «التقريب والتيسير» في أصول الحديث.

١٥ ـ الفتاوى:

كانت مجموعة من الفتاوى متفرقة، قام بجمعها تلميذه ابن العطار رحمهما الله، وهي مجموعة من الفتاوى النافعة، ذات علم غزير، وفقه يسير.

١٦ ـ أدب المفتي والمستفتي:

وهو أحد الكتب القيمة، والتي تُعدّ ذخيرة من ذخائر العلم.

---

(١) الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، صاحب السنن. توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

(٢) ابن حجر شيخ الإسلام وإمام الحفاظ في زمانه، وحافظ الديار المصرية، قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد العسقلاني المصري الشافعي. توفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

١٧ ـ مختصر آداب الاستسقاء:

كتاب صغير.

١٨ ـ رؤوس المسائل:

كتاب صغير.

١٩ ـ تحفة طلاب الفضائل:

هذا الكتاب ذكر فيه الإمام النووي من الفقه والتفسير واللغة، وضوابط، ومسائل من العربية، وهو من الكتب القيمة النافعة، أفرده مؤلفه من شرح المهذب.

٢٠ ـ الترخيص في الإكرام والقيام:

هي رسالة صغيرة الحجم في القيام وصوره وأحكامه.

٢١ ـ مسألة تخميس الغنائم:

ألفّ الإمام النووي هذا الكتاب حين وقع النزاع بينه وبين شيخه الفركاح في مسألة تخميس الجواري في الحرب[١].

٢٢ ـ مختصر التذنيب:

التذنيب للإمام الرافعي سماه المنتحب رحمهما الله، وقد أسقط منه في آخر الفصل السادس أوراقاً تزيد على الكراس فلم يختصرها.

---

(١) السخاوي: ٨ ـ ٩ و ١٣.

٢٣ ـ الأربعون النووية :

قال النووي رحمه الله تعالى: قد روينا عن علي[١] بن أبي طالب وعبد الله[٢] بن مسعود ومعاذ[٣] بن جبل وأبي الدرداء[٤] وابن عمر وابن عباس[٥] وأنس بن مالك وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم من طرق كثيرات، بروايات متنوعات، أن رسول الله ﷺ قال: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء»[٦]. وقد صنف العلماء رضي الله عنهم في هذا

---

(١) علي بن أبي طالب أمير المؤمنين أبو الحسن والحسين الهاشمي، قاضي الأمة، نهض بأعباء العلم والعمل، استشهد في سابع عشر رمضان من عام أربعين وسنّه ستّون سنة.

(٢) عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن الهذلي صاحب رسول الله ﷺ وخادمه وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدريين، ومن نبلاء الفقهاء المقرئين. مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين.

(٣) معاذ بن جبل أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي شهد العقبة وهو ابن ثمان عشرة سنة أو دونها، وشهد بدراً والمشاهد، وكان من نجباء الصحابة. استشهد معاذ في الطاعون بالأردن في سنة ثماني عشرة وله خمس وثلاثون سنة.

(٤) أبو الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي، وكان يقال: هو حكيم هذه الأمة، شهد أحد، مات سنة اثنتين وثلاثين.

(٥) عبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب أبو العبّاس الهاشمي، الإمام البحر عالم العصر ابن عم رسول الله ﷺ، دعا له النبي ﷺ أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل. توفي في الطائف سنة ثمان وستين.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» بمثله: ٤/١٨٩ .

الباب ما لا يحصى من المصنفات. فأول من علمته صنف فيه عبد الله بن المبارك، ثم محمد بن أسلم الطوسي، ثم الحسن بن سفيان النسائي، وأبو بكر الآجري، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصفهاني، والدارقطني[1]، والحاكم[2] وأبو نعيم[3]، وأبو عبد الرحمن الأسلمي، وأبو سعيد الماليني، وأبو عثمان الصابوني، وعبد الله بن محمد الأنصاري، وأبو بكر البيهقي[4]، وخلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين.

واستخرت الله تعالى في جمع أربعين حديثاً، اقتداء بهؤلاء الأئمة الأعلام، وحفاظ الإسلام. وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال[5] ومع هذا فليس اعتمادي على

---

(١) الدَّارقطني الإمام شيخ الإسلام حافظ الزمان أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي، الحافظ صاحب «السنن» وغيرها. مات ثامن ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.

(٢) الحاكم الحافظ الكبير إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري. صاحب «المستدرك» وغيره. مات في صفر سنة خمس وأربعمائة.

(٣) أبو نعيم الحافظ الكبير، محدِّث عصره، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني الصوفي الأحول. مات في محرم سنة ثلاثين وأربعمائة.

(٤) ترجم له.

(٥) بالشروط التي اشترطوها، وهي ثلاثة كما نقله السخاوي عن الحافظ ابن حجر:

الأول: وهو متفق عليه ـ أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج حديث من انفرد من الكذابين والمهتمين بالكذب ومن فحش غلطه. =

هذا الحديث، بل على قوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»[1]، وقوله ﷺ: «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها»[2].

= الثاني: أن يكون مندرجاً تحت أصل عام، فيخرج ما يخترع بحيث لا يكون له أصل أصلاً.
الثالث: أن لا يعتقد عند العمل ثبوته، لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله.
قال: والأخيران عن العز بن عبد السلام وعن صاحبه ابن دقيق. والأول نقل العلائي الاتفاق عليه. وهذا لا ينافي ما نقل عن الإمام أحمد من القول بالعلم الضعيف إذا لم يوجد في المسألة غيره، ولم يوجد ما يعارضه، فالضعيف عند أحمد لا يشتمل ما قالوا بشدة ضعفه كالمتروك والمنكر.

(١) رواه البخاري في: (٣) كتاب العلم ـ (٩) باب قول النبي ﷺ «رُبّ مبلغ أوعى من سامع» حديث رقم: (٦٧).
ورواه مسلم في: (١٥) كتاب الحج ـ (٨٢) باب تحريم مكة وصيدها وحلاها وشجرها ـ حديث رقم: (٤٤٦).
ورواه أبو داود في: (٥) كتاب التطوع ـ (١٠) باب من رخص فيهما إذا كانت الشمس مرتفعة ـ حديق رقم: (١٢٧٨).
ورواه الترمذي في: (٧) كتاب الحج ـ (١) باب ما جاء في حرمة مكة ـ حديث رقم: (٨٠٩).
ورواه النسائي في: (٢٤) كتاب الحج ـ (١١١) باب تحريم القتال فيه ـ حديث رقم: (١).
ورواه ابن ماجه في: «المقدمة» ـ الباب (١٨) ـ حديث رقم: (٢٣٣).
ورواه أحمد: ٤/ ٣١، ٣٢، ٥/ ٤، ٣٧، ٣٩.

(٢) رواه أبو داود في: (٢٤) كتاب العلم ـ (١٠) باب فضل نشر العلم ـ حديث رقم: (٣٦٦٠).
ورواه الترمذي في: (٣٩) كتاب العلم ـ (٧) باب ما جاء في الحثّ على تبليغ السَّماع ـ حديث رقم: (٢٦٥٦، ٢٦٥٧).
قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها، وقد رأيت جمع أربعين من هذا كله، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها (قاعدة عظيمة) من قواعد الدين، وقد وصفه العلمان بأن مدار الإسلام عليه أو هو نصف الإسلام أو ثلثه أو نحو ذلك. ثم التزم في هذه الأربعين أن تكون صحيحة، ومعظمها في صحيحي البخاري ومسلم، واذكرها محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها، ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى، ثم أتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها.

وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث، لما اشتملت عليه من المهمات. واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات. وذلك ظاهر لمن تدبره، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي وله الحمد والنعمة، وبه التوفيق والعصمة.

هذا ما استطعنا جمعه مما ألفه أو بدأ بتأليفه، أو سار بتأليفه شوطاً يذكر، وقد تركنا ذكر ما بدأ به في صفحات قليلة. على أنه ـ رحمه الله ـ غسل كثيراً من مؤلفاته، ولم يبقِ إلا ما قيل له فيه: إن هذا مما سارت به الركبان، مخافة عدم الإخلاص في التأليف، وبعضها كتبها مسودة، ولم يتح له الوقت لإعادة النظر فيها.

يقول تلميذه ابن العطار[1]: ولقد أمرني مرة ببيع كراريس ـ نحو

(١) تحفة الطالبين: ١١/ب.

ألف كراس ـ بخطه، وأمرني بأن أقف على غسلها في الوراقة، وخوفني إن خالفت أمره في ذلك، فما أمكنني إلا طاعته، وإلى الآن في قلبي منها حسرة.

الفصل الرابع

١ ـ النووي عالم الحديث

٢ ـ النووي الفقيه

٣ ـ النووي اللغوي

٤ ـ زهد الإمام النووي وورعه

٥ ـ مواقفه مع الملوك والأمراء في الأمر بالمعروف

١ ـ النووي عالم الحديث

إن مرتبة السنة النبوية في الحجية تلي مرتبة الكتاب الكريم، إذ هي مفسرة لنصوصه، ومبينة لمعناه: بتخصيص عامه، وتقييد مطلقه، وتوضيح مشكله، وتعيين مبهمه، وتعليل محكمه، واتباعها واجب كالكتاب، بنص الكتاب ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1].

وقد حرص المسلمون في عصر النبوة على حفظها في صدورهم، ونشرها في مجتمعاتهم، وروايتها عند الحكم على نوازلهم وأحداثهم.

وكذلك كانوا في عصر الخلفاء الراشدين، وكبار التابعين؛ يرويها الفقهاء والقضاء والمعلمون، ولم تدون في كتاب، لعدم انتشار الكتابة حينئذ، ولعدم الدواعي للتدوين، بل كانت محفوظة في صدور العدول الأمناء، لا يعرف مكانها دسّ أو تغيير، ومع ذلك فقد كانت من بعض الصحابة وكبار التابعين رَحَلات إلى بعض الأمصار، لطلب الخبر وسماعه ممن سمع أو انفرد برواية، ومضت المائة الأولى، وكل رواة السنة، إما صحابي عدل، ضابط ـ إلا ما كان من القليل الذي يقع له النسيان والخطأ ـ وإما تابعي كبير، ثقة يتحرى الصدق ويتشدد في

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

الرواية ـ إلا ما كان من اليسير الذي يقع لبعضهم من الأوهام والأخطاء ـ ومع ذلك: فقد تكلم في الرواة من الصحابة جماعة منهم، ونقدوا بعض ما روي عنهم، فتكلم: ابن عباس، وعُبادة[1] الصامت، وأنس بن مالك، والسيدة عائشة، وتكلّم من كبار التابعين: الشعبي[2]، وابن المسيب، وابن سيرين[3] وغيرهم، وكان القول منهم في الرجل الواحد بعد الرجل، لقلة الضعفاء في ذلك العصر.

ولما كانت أوائل المائة الثانية في عصر أواسط التابعين، وجد من الرواة من يرى المرسل، والمنقطع، ومن كثر خطؤه.

وازداد ذلك في عصر صغار التابعين بعد الخمسين والمائة، وفيها كان كبار أتباع التابعين، وظهرت الفرق السياسية، وانتشرت النحل والعصبية، وزاحمت الثقافات الأعجمية المعارف الشرعية، وظهر من يتعمد الكذب، ترويجاً لبدعته، وانتصاراً لمذاهبه ونحلته، فاضطر العلماء الجهابذة من علماء الجرح والتعديل، إلى اتساع النظر، والاجتهاد في التفتيش عن الرواة، ونقد الأسانيد فتكلم: شعبة ومالك

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد المدني، بدري مشهور، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين، وقيل عاش إلى خلافة معاوية.

(٢) الشّعبي عامر بن شراحيل أبو عَمر والكوفي. قال أبو مخلد: ما رأيت أفقه من الشّعبي. مات سنة ثلاثمائة، أو أربع أو سبع أو عشر.

(٣) محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري. مولى أَنَس بن مالك. قال ابن سعد: ثقة مأمون، عالٍ رفيع فقيه، إمام كثير العلم والورع. مات في شوال سنة عشر ومائة.

ومعمر، وهشام[١] الدّستُوائي، ثم ابن المبارك، وابن عيينة، ثم يحيى[٢] بن سعيد القطان وتلامذته، كعلي[٣] بن المديني، ويحيى بن معين، وتكلم عن علماء المائة الثالثة: أحمد بن حنبل وطبقته وتلامذتهم من بعده: كالبخاري ومسلم وأبي زرعة[٤] وأبي حاتم[٥]، ثم تلامذتهم: كالترمذي والنسائي[٦]، إلى آخر عصر الرواية ـ آخر المائة الثالثة.

وعلوم الحديث، مما يبحث عن الراوي والمروي، من حيث معرفة

---

(١) هشام بن أبي عبد الله سَنْبَر، بمهملة ثم نون ثم موحدة، أبو بكر الدَّستوائي، بفتح الدال وسكون السين المهملتين وفتح المثناة، ثم مد، ثقة، ثبت، وقد رمي بالقدر. مات سنة أربع وخمسين.

(٢) يحيى بن سعيد بن فرُّوخ، بفتح الفاء، وتشديد الراء المضمومة وسكون الواو ثم معجمة، التميمي، أبو سعيد القطّان البصري، ثقة متقن حافظ، إمام قدوة. مات سنة ثمان وتسعين.

(٣) علي بن عبد الله بن جعفر بن نَجيح، السعدي مولاهم، أبو الحسن بن المديني البصري، ثقة ثبْت إمام، أعلم أهل عصره بالحديث، وعلله، مات سنة أربع وثلاثين.

(٤) عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فرّوخ، أبو زرعة الرازي، إمام حافظ ثقة، مشهور، من الحادية عشر، مات سنة أربع وستين.

(٥) أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود الحَنْظلي الرازي أحد الأئمة الحفاظ. قال الخطيب: كان أحد الأئمة الحفاظ الأثبات. مات بالري سنة خمس ـ وقيل سنة سبع ـ وسبعين ومائتين.

(٦) أبو عبد الرحمن أحمد بن شُعَيب بن علي بن سِنان بن بحر بن دينار الخراساني النسائي. القاضي، الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، أحد الأئمة المبرزين. مات سنة ثلاث وثلاثمائة شهيداً.

المقبول والمردود، قد دونت في عصر التدوين، ودون كذلك متن الحديث، في أوائل المائة الثانية، بأمر الخليفة عمر[١] بن عبد العزيز، وجمعت السنة في: الحجاز والشام ومصر والعراق، واليمن والريّ وخراسان، واختلف العلماء في كيفية جمعها؛ وصورة تأليفها، وانتقائها، وترتيبها، وكان لكل طبقة ترتيب خاص.

ووجد في بعض هذه المصنفات، حكم على بعض الأحاديث، وقول في علل المعلول، ونقد لبعض الرواة. وجمع في تلك المصنفات أقوال العلماء في الإسناد كما جمع ما بها من اصطلاحات المتقدمين، فيما يتعلق بالأسانيد والمتون، وجمع معها ما دار بين العلماء في مجالسهم وجدلهم، ومناظرتهم، ولما ظهر من الرواة صفات وأحوال لها مدخل في التعديل والتجريح، اتسع النظر فيها وتتابعت الأفكار، وانتحى العلماء الفرز والاختيار والتخصص، والابتكار، والتنسيق، فتعمق البحث ونخل الحديث، وامتاز صحيحه من سقيمه.

وألفت في أنواع علومه المؤلفات، فألفت في أحوال الإسناد، في الرجال، كتب التاريخ والطبقات والوفيات، ومعرفة الوجدان، ورواية الأكابر عن الأصاغر، وأصناف المدلسين والكذابين، وفي أحوال الخبر كتب العلل، وألفاظ مراتب القبول والرد، وتفسير ألفاظ الجرح

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي، أمير المؤمنين، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ولي إمرة المدينة للوليد، مات في رجب سنة إحدى ومائة.

والتعديل من الحفاظ والمحدثين، وتعددت أنواع علم أصول الحديث، حتى إنه نقل عن ابن الملقن(١): أن أنواعه تزيد على المائتين، وبلغ أبو حاتم في تقسيم الضعيف منه خمسين قسماً إلا واحداً. وابتدأ ذلك التدوين، في أبواب، وبعض أنواع منه، أثناء المائة الثالثة، فلما كانت المائة الرابعة، وفيها نضجت العلوم، واستقر الإصلاح، ألف الرَّامَهرمُزي(٢) من علماء أهل السنة، فجمع في ذلك العلم كثيراً من أنواعه، في كتابه «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي». قال ابن حجر: لكنه لم يستوعب، وقال: «وإن كان يوجد قبله مصنفات مفردة في أشياء من فنونه، لكن هذا أجمع في ذلك في زمانه، ثم توسعوا فيه».

ويسمى هذا العلم: علم أصول الحديث، وعلوم الحديث، ومصطلح الحديث، وعلم دراية الحديث، وكان منه ما أفرد من التاريخ لرجال الحديث.

وتسمية هذا العلم. بعلم دراية الحديث أو علم الحديث دراية إنما هو اصطلاح المتأخرين، ممن جاء بعد الخطيب البغدادي، ومن عصر

---

(١) ابن الملقن الإمام الفقيه الحافظ ذو التصانيف الكثيرة سراج الدين أبو حفص عمر بن الإمام النحوي نور الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الأنصاري الشافعي أحد شيوخ الشافعية وأئمة الحديث. مات في ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الأول سنة أربع وثمانمائة.

(٢) الرامهرمزي الحافظ الإمام البارع أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الفارسي القاضي، صاحب كتاب «المحدث الفاصل». عاش إلى قريب الستين وثلاثمائة.

ابن الأكناني فمن بعده، وعلى هذا الاصطلاح جلال الدين السيوطي في كتابه تدريب الراوي، وهو تقريب لكتاب الإمام النواوي. وكلما جاءت فترة من الزمن جاء لها محدثون ووجدوا في الحديث شغلاً جديداً: استدراكاً أو شرحاً أو تصحيحاً. وفي فترة العصور الإسلامية الوسطى وجد أمثال ابن الصلاح والنووي والمِزي والذهبي، وآخر الكبار ابن حجر شارح البخاري.

وامتاز النووي من بينهم بأنه فقيه الأمة، وقلما اجتمع لعالم تبحر في الفقه وإتقان لعلوم الحديث، يقول ابن العطار[1]: سمع الكتب الستة، وكتب السنن، وشرح السنة للبغوي، ومعالم التنزيل في علوم التفسير، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار، وغير ذلك كثير.

وقد روى النووي أشهر هذه الكتب بالسند العالي إلى الأئمة المؤلفين.

وقد أثنى العلماء على الإمام النووي رحمهم الله ثناءً حسناً، فمنهم الذهبي[2] الذي قال عن الإمام النووي: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب، ومحقها من أغراضها؛ كان حافظاً للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعليه.

وقد قال النووي في أنواع علوم الحديث[3]: «ومن أهم أنواع العلوم

(١) تحفة الطالبين: ٨/ أ، ب.
(٢) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٧٢.
(٣) مقدمة شرح صحيح مسلم: ٣ ـ ٤.

تحقيق معرفة الأحاديث النبويات أعني معرفة متونها، صحيحها وحسنها وضعيفها، متصلها ومرسلها ومنقطعها ومعضلها ومقلوبها، مشهورها وغريبها وعزيزها، متواترها وآحادها وأفرادها، معروفها وشاذها ومنكرها، ومعللها ومدرجها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومجملها ومبينها ومختلفها، وغير ذلك من أنواعها المعروفات.

قال السخاوي[١]: وكذا رأيته علّق فوائد على الأنساب لابن الأثير. وقال ابن العطار[٢]: وقرأ على الشيخ أبي البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي الحافظ؛ «الكمال في أسماء الرجال» للحافظ عبد الغني المقدسي، وعلّق عليه حواشي، وضبط عنه أشياء حسنة.

٢ ـ النووي الفقيه

قبل أن نحيط القارىء علماً بما كان عليه شيخ الإسلام الإمام النووي من العلم، والفهم والفطنة في علم الشريعة الإسلامية، وأصول الدين، وأحكام الإسلام، نقول ولله الحمد والمنة: إن النووي لم يكن شيخ الإسلام من فراغ، ولكنه كان بحراً تسير فيه كل السفن، ولا تستطع أن تصل إلى العمق الشافعي.

هذا وقد تتلمذ الإمام النووي رحمه الله على كبار شيوخ عصره، وفي أقل زمن أتقن الفقه وأصوله، وعرف قواعده، وأصبح رأساً

---

(١) السخاوي: ص ١٠.

(٢) تحفة الطالبين: ٨/أ.

للمذهب الشافعي، وإن لم يكن قد أصبح أستاذاً لمشايخه، نستطيع القول بأنه تساوى معهم، حتى أصبح شيخ عصره، وأحفظ علماء مذهبه، وكثرت تصانيفه النافعة، والتي نستشف منها الرحيق إلى هذا اليوم.

يقول تلميذه ابن العطار[1]: كان حافظاً للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين، واختلاف العلماء ووفاتهم وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هجر، سالكاً في كلها طريقة السلف.

وقال الأسنوي[2] في طبقاته: وهو محرر المذهب، ومهذبه، ومنقحه، ومرتبه، سار في الآفاق ذكره، وعلا في العالم محله وقدره[3].

وقال الشهاب أبو العباس بن الهائم[4] في مقدمة البحر العجاج شرح المنهاج: الإمام العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب، ومهذبه، وضابطه، ومرتبه.

وقال ابن كثير[5]: عن «النووي» شيخ المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه.

---

(١) تحفة الطالبين مصور (٩/ب).

(٢) الأسنوي هو: عبد الرحيم «جمال الدين» المتوفى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

(٣) طبقات الأسنوي: ٢/٤٧٦.

(٤) أحمد بن محمد بن عماد الدين، شهاب الدين بن الهائم، من كبار علماء الرياضيات، وحصل في الفقه. توفي سنة ٨١٥ هـ.

(٥) البداية والنهاية: ١٣/٢٧٨.

٣ ـ النووي اللغوي

وبجانب صدارة علم الحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، فقد كان النووي رحمه الله عالماً بحّاراً غواصاً في علوم اللغة. يقول الإمام النووي رحمه الله في مقدمة كتابه تهذيب الأسماء واللغات[١]: «أما بعد: فإن لغة العرب لما كانت بالمحل الأعلى والمقام الأسنى، وبها يعرف كتاب رب العالمين، وسنة خير الأولين والآخرين وأكرم السابقين واللاحقين، صلوات الله عليه وعلى سائر النبيين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ اجتهد أولو البصائر والأنفس الزاكيات، والهمم المهذبة العاليات في الاعتناء بها والتمكن من إتقانها، بحفظ أشعار العرب وخطبهم ونشرهم وغير ذلك من أمرهم. وكان هذا الاعتناء في زمن الصحابة رضي الله عنهم مع فصاحتهم نسباً وداراً، ومعرفتهم باللغة استظهاراً، لكن أرادوا الاستكثار من اللغة التي حالها ما ذكرنا ومحلها ما قدمنا، وكان ابن عباس وعائشة وغيرهما رضي الله عنهم يحفظون من الأشعار واللغات ما هو من المعروفات الشائعات.

وأما ضرب عمر بن الخطاب وابنه رضي الله عنهما أولادهما لتفريطهم في حفظ العربية؛ فمن المنقولات الواضحات الجليلة. وأما المنقول عن التابعين ومن بعدهم في ذلك فهو أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يذكر. وأما ثناء إمامنا الشافعي رحمه الله وحثه على تعليم العربية في أول رسالته، فهو بمقتضى منصبه وعظم جلالته.

ولا حاجة إلى الإطالة في الحث عليها، فالعلماء مجمعون على

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات: ١/ ٢ ـ ٣.

الدعاء إليها، بل شرطوها في المفتي والإمام الأعظم والقاضي لصحة الولايات، واتفقوا على أن تعلمها من فروض الكفايات».

يقول ابن قاضي شهبة في كتابه «طبقات النحاة واللغويين»[1]: «أبو زكريا النووي الفقيه، الحافظ النحوي اللغوي، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف المشهورة، كان إماماً في اللغة والنحو. قرأ ذلك على الشيخ جمال الدين بن مالك، ونقل عنه في تصانيفه، وصنف تهذيب الأسماء واللغات، وتركه مسودة، وهو يدل على تبحره في علم اللغة، وكذلك كتابه التحرير على كتاب التنبيه، فذكرته بسبب ذلك».

٤ ـ زهد الإمام النووي وورعه

قال ابن العطار «تلميذ الإمام النووي» رحمهما الله: ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنّه كان لا يضيع له وقتاً لا في الليل ولا في النهار حتى في الطريق، وأنّه دام ست سنين ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق. قال الذهبي قلت: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها. قال الشيخ الرشيد بن المعلم: عذلت الشيخ محيي الدين في عدم دخوله الحمام، وتضييق العيش في مأكله وملبسه وأحواله وخوفته من مرض يعطله عن الاشتغال فقال إن فلاناً صام وعبد الله حتى اخضر جلده.

قال الذهبي[2]: وكان مع تبحره في العلم، وسعة معرفته بالحديث

---

(١) مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق (رقم: ٥٢٩).
(٢) العبر: ٥/ ٣١٢.

والفقه واللغة وغير ذلك، بما قد سارت به الركبان، رأساً في الزهد، قدوة في الورع. وكان يمتنع من أكل الفواكه والخيار ويقول أخاف أن يرطب جسمي ويجلب النوم، وكان رحمه الله على جانب كبير من الزهد والصبر والخشونة في العيش، والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة، يتقوَّت من جراية المدرسة الرواحية، ومما يأتيه من بلده من عند أبويه، وكان يتصدق منها أحياناً، وكان كثير السهر في العبادة والتصنيف، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، يواجه الملوك فمن دونهم، وكان عليه سكينة ووقار في البحث مع العلماء وغيرهم، متابعاً للسلف من أهل السنة والجماعة، وكان كثير التلاوة للقرآن الكريم والذِّكْر، معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الآخرة.

قال الذهبي(١): كان عديم الميرة والرفاهية والتنعم، مع التقوى والقناعة والورع الثخين، والمراقبة لله في السر والعلانية، وترك رعونات النفس من ثياب حسنة، ومأكل طيب، وتجمل في هيئة. وكان من زهده رحمه الله أنه لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة، ويشرب شربة واحدة عند السحر، ومن ورعه أنه كان لا يتناول من جهة ما مالاً أو طعاماً ولا يقبل من أحد شيئاً، وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر ممن لا يشتغل عليه، وقد أهدى إليه فقيراً إبريقاً فقبله، وعزم عليه الشيخ برهان الدين الإسكندراني أن يفطر عنده فقال أحضر الطعام إلى هنا ونفطر جملة، فأكل من ذلك، وكان لونين، وربما جمع الشيخ بعض الأوقات بين أداميين.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٣١٣.

قال قاضي صفد العثماني[1]: إنه لم يأخذ معلوماً قط، قال: وباشر مشيخة دار الحديث لما تعين عليه. فلم يتناول شيئاً من معلومها. وقال ابن دقمان: إنه كان يجمع جامكيته عند الناظر، وكلما صار له حق سنة، اشترى له به ملكاً، ويوقفه على دار الحديث، أو كتباً فيوقفها على خزائنها. وعندما سأله ابن عطار[2] عن عدم أكله فاكهة دمشق فقال: إنها كثيرة الأوقاف والأملاك لمن هو تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرف في ذلك إلا عن وجه الغبطة والمصلحة، والغبطة لليتيم والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك، فكيف تطيب نفسي.

قال ابن كثير[3]: كان من الزهادة والعبادة والورع والتحري والانجماح عن الناس على جانب كبير، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره، وكان يصوم الدهر، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يخشى في الله لومة لائم.

روى الإمام أحمد بن حنبل[4] عن بشر بن الحارث[5] قال: سمعت

---

(١) السخاوي: ص ٣٧.
(٢) تحفة الطالبية: ٤/ب.
(٣) ابن كثير هو: الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة.
(٤) أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي. الإمام صاحب «المسند» وغير ذلك، كان من كبار الحفاظ الأئمة، ومن أحبار هذه الأمة. مات ببغداد يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين.
(٥) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال المَروزي، نزيل بغداد، =

المعافي بن عمران يقول: كان عشرة فيمن مضى من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد، لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال وإلا استفوا التراب، ثم عد بشر إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، وعلي بن الفضيل، وأبا معاوية الأسود، ووهيب بن الورد، وحزيفة شيخ من أهل حوران، وداود الطائي، فعد عشرة كانوا لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفوا التراب[1].

وعن أبي هريرة[2] قال قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»[3] فقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾[4] وقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم** ﴾[5] ثم ذكر «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[6].

أبو نصر الحافي، الزاهد الجليل المشهور، ثقة قدوة، مات سنة سبع وعشرين.

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد حنبل: ص ٧ ـ ٨.

(٢) أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني. حفظ عن النبي ﷺ الكثير، ولي إمرة المدينة. قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره.

(٣) رواه مسلم في: (١٢) كتاب الزكاة ـ (١٩) باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ـ حديث رقم: (٦٥). ورواه أحمد: ٢/٣٢٨.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٦٧.

(٦) تخريج الحديث السابق.

وعن ابن عمر[1] قال: «مر رجل يحمل حشيشاً فتناول منه رجل طاقة فقال له ابن عمر أرأيت لو أن أهل منى أخذوا من هذا طاقة طاقة بقي منها شيء قال: لا. قال فلم فعلت. وعن حمّاد[2] بن زيد قال: «كنت مع أبي فأخذت من حائط تبنة قال فقال لي لِم أخذت قال قلت: إنما هي تبنة. قال: لو أن الناس أخذوا تبنة تبنة هل كان يبقى في الحائط تبن أو كلاماً ذا معناه. وعن عبادة[3] قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إنّ كُنّا لنعدُّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات أو من الكبائر»[4].

ومن يقرأ السيرة العطرة لأصحاب رسول الله ﷺ، وذوو الفضل من التابعين ليجد أنّ الإمام النووي سار على نهجهم، وكان ورعُه رحمه الله ورع من يشهد يوم الحساب، بعين يقينة وعظم إيمانه، أكثر مما لو كان

---

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عبد الرحمن العدوي المدني الفقيه أحد الأعلام في العلم والعمل، شهد الخندق وهو من أهل بيعة الرضوان. توفي سنة أربع وسبعين.

(٢) حمّاد بن يزيد بن دِرْهم الأزدي، الجَهْضَمي، أبو اسماعيل البصري، ثقة ثبت فقيه، قيل إنه كان ضريراً، ولعله طرأ عليه، لأنه صحّ أنه كان يكتب. مات سنة تسع وسبعين.

(٣) عبادة هو: ابن قرظ.

(٤) رواه البخاري في: (٨١) كتاب الرِّقاق ـ (٣٢) باب ما يتقي من مُحَقَّرات الذُّنوب ـ حديث رقم: (٦٤٩٢).
ورواه الدارمي في: (٢٠) كتاب الرِّقاق ـ (٥٤) باب في الموبقات ـ حديث رقم: (١).
ورواه أحمد في «المسند»: ٣/ ٤٣، ١٥٧، ٢٨٥، ٤٧٠، ٥/ ٧٩.

يشهده بحاسة نظره، لذلك كان يردد في قيامه في الليل قوله تعالى: ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾[1] وكان يتلو هذه الآية بقلب خاشع، وخوف من الباري عزّ شأنه.

٥ ـ مواقفه مع الملوك والأمراء في الأمر بالمعروف

كان النووي رحمه الله يواجه الملوك والأمراء بالنصيحة، والأمر بالمعروف، والإنكار عليهم في مخالفتهم، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن مواجهتهم، كتب لهم رسائل وأبلغهم إياها.

ومما كتبه ورقة إلى الملك الظاهر بيبرس تتضمن العدل في الرعية، وإزالة المكوس عنهم، وكتب معه في ذلك غير واحد من الشيوخ وغيرهم، ووضع ورقة الظاهر في ورقة الأمير بدر الدين الخازاندار الظاهري نائب المملكة، ونصها كما ذكر الحافظ السخاوي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله يحيى النووي: سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المحسن ملك الأمراء، بدر الدين، أدام الله له الخيرات، وتولّاه بالحسنات، وبلغه من خيرات الآخرة والأولى كلَّ آماله، وبارك له في جميع أحواله.

وننهي إلى العلوم الشريفة: إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش، وضعف حال، بسبب قلة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي، وغير ذلك، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الراعي والرعية، ونصيحته في مصلحته

---

(١) سورة الصافات، آية: ٢٤.

ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة، وقد كتب خَدمَة الشرع الناصحون للسلطان، المحبُّون له كتاباً بتذكرة النظر في أحوال الرعية، والرفق بهم، وليس فيه ضرر، بل هو نصيحة محضة، وشفقة تامة، وذكرى لأولي الألباب، والمسؤول من الأمير أيده الله تعالى، تقديمه إلى السلطان أدام الله له الخيرات، ويتكلم عليه من الإشارة بالرفق بالرعية، بما يجده مدّخراً له عند الله تعالى ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾[1].

وهذا الكتاب الذي أرسَلَتْه العلماء إلى الأمير أمانة ونصيحة للسلطان أعز الله أنصاره والمسلمين كلِّهم في الدنيا والآخرة، فيجب عليكم إيصاله للسلطان أعز الله أنصاره، وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة، ولا عذر لكم في التأخر عنها، ولا حجة لكم في التقصير فيها عند الله تعالى، وتسألون عنها ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون** ﴾[2] ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾[3] وأنتم بحمد الله تحبون الخير، وتحرصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطاعات، وقد أهِّلتم له، وساقه الله إليكم، وهو فضل من الله، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدة إن لم يحصل النظر في الرفق بهم، قال الله تعالى:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٠.
(٢) سورة الشعراء، آية: ٨٨.
(٣) سورة عبس، آية: ٣٧.

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليم﴾(٢) والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، فما فعلتموه وجدتموه عند الله ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾(٣) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وخلاصة القول إننا ما علمنا في القرن السابع الهجري أحداً من العلماء جاهد واجتهد، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر أكثر من أَمْرِ الإمام النووي رحمه الله، يقول الذهبي: كان عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعروف والنهي فرض(٤) كفاية على الناس جميعاً، وقد كان السلف رحمهم الله لا يتركون هذا الأمر ولو نالهم بسببه الموت أو العذاب الشديد، ومثل ذلك الأئمة وأتباعهم، بل كان أكثر علماء كل العصور لا يضنون بالأمر بالمعروف، ولا يسكتون عن النهي عن المنكر.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بطاعته، وأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، فقال جلّ شأنه: ﴿ ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾(٥) ، فقد بعث الله رسوله محمداً ﷺ بأفضل المناهج والشرائع، وأنزل عليه أفضل الكتب،

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.
(٢) سورة النساء، آية: ١٢٧ .
(٣) سورة النحل، آية: ١٢٨ .
(٤) أي إذا قام بها جماعة سقطت عن الآخرين.
(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠٤ .

وأرسله إلى خير أمة أخرجت للناس، وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة، وحرم الجنّة إلا على من آمن به وبما جاء به، ولم يقبل من أحد إلا الإسلام الذي جاء به، فمن ابتغى غيره ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، وأخبر في كتابه أنه أنزل الكتاب والحديد ليقوم الناس بالقسط فقال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز**﴾[١]، ولهذا أمر النبي ﷺ أمته بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، أو إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى، ففي سنن أبي داود[٢] عن أبي سعيد[٣] أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم»[٤]، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمَّروا أحدهم»[٥]، فإذا كان قد أوجب في

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٢) أبو داود هو: سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني. الإمام العلم صاحب كتاب «السنن» وغيره. مات في شوال سنة خمس وسبعين ومائتين.

(٣) أبو سعيد الخدري سعد بن مالك الأنصاري الخزرجي المدني. كان من علماء الصحابة، وممن شهد بيعة الشجرة. مات سنة أربع وسبعين.

(٤) رواه أبو داود في: (١٥) كتاب الجهاد ـ (٨٥) باب في القوم يسافرون يؤمِّرون أحدهم ـ حديث رقم: (٣٦٠٨).

(٥) رواه أحمد في «مسنده»: ٢/ ١٧٧.

أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك، ولهذا كانت الولاية لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان من أفضل الأعمال الصالحة، حتى قد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر»[1].

ومن هذا المنطلق الإسلامي، والصرح الإيماني، قال ابن العطار[2]: وكان ـ الإمام النووي ـ مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار، لا يأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، وتوصل إلى إبلاغها. وقال ابن كثير[3]: إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة لما أرادوا وضع الأملاك على بساتينها، فرد عليهم ذلك، ووقى الله شرها بعد أن غضب السلطان، وأراد البطش به، ثم بعد ذلك أحبه وعظّمه، حتى كان يقول: أنا أفزع منه. وكان السبب الأوحد في الرسالة التي بعث بها الإمام النووي إلى الظاهر بيبرس هي قضية الحوطة ـ يقول جعفر الأدفوي ـ: إن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار ونزوحهم عن البلاد، ولّى وكالة

---

(١) رواه أحمد في «المسند»: ٣/ ٢٢. ورواه الترمذي في: (١٣) كتاب الأحكام ـ (٤) باب في الإمام العادل ـ حديث رقم: (١٣٢٩).
قال أبو عيسى: حديث أبي سعيد حديث حسن، غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) تحفة الطالبين: ١٣/ ١.

(٣) تاريخ النووي للسخاوي: ص ٤٥.

بيت المال شخصاً من الحنفية، فقال: إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولوا عليها فتملكوها على مقتضى مذهب أبي حنيفة[١] رحمه الله، فوضع السلطان يده عليها، فقام جماعة من أهل العلم وكان الشيخ فيهم. بل كان الإمام النووي رحمه الله أعظم من فيهم، فظن السلطان أن النووي على مناصب دنيوية يعزله عنها، فما وجد له فيها سلطان.

ومن هذا القلب النووي العامر بالإيمان عَلِمَ أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق ليكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لذلك، وبه أنزل الكتب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول والمؤمنون، قال الله تعالى: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[٣] وقال: ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[٤]. وقد أخبر عن جميع المرسلين أن كلاً منهم يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

وعبادته تكون بطاعته وطاعة رسوله، وذلك هو الخير والبر والتقوى

---

(١) أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت التَّيمي الكوفي. فقيه أهل العراق، وإمام أصحاب الرأي، وقيل إنه من أبناء فارس. مات سنة خمسين ومائة، وقيل سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة ثلاث.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٤) سورة النحل، آية: ٣٦.

والحسنات والقربات والباقيات الصالحات والعمل الصالح، وإن كانت هذه الأسماء بينها فروق لطيفة ليس هذا موضعها. وهذا الذي يقاتل عليه الخلق كما قال تعالى: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾[1]، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري[2] رضي الله عنه قال: «سئل النبي ﷺ عن رجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[3].

وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر، فالتعاون على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع، إذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفاسد، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طائفة آمر وناهٍ، فمن لم يكن

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٣.

(٢) أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، استعمله النبي ﷺ مع معاذ على اليمن، ثم ولي عمر الكوفة والبصرة. مات في سنة أربع وأربعين.

(٣) رواه البخاري في: (٩٧) كتاب التوحيد ـ (٢٨) باب قوله تعالى: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين» ـ حديث رقم: (٧٤٥٨).

ورواه مسلم في: (٣٣) كتاب الإمارة ـ (٤٢) باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ـ حديث رقم: (١٥٠).

ورواه ابن ماجه في: (٢٤) كتاب الجهاد ـ (١٣) باب النية في القتال ـ حديث رقم: (٢٧٨٣).

ورواه أحمد: ٤/ ٣٩٧، ٤٠٥.

من أهل الكتب الإلهية ولا من أهل دين فإنهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود بمصالح دنياهم، مصيبين تارة ومخطئين أخرى. وأهل الأديان الفاسدة من المشركين، وأهل الكتاب المستمسكين به بعد التعديل ـ أو بعد النسخ والتبديل ـ مطيعون فيما يرون أنه يعود عليهم بمصالح دينهم ودنياهم، وغير أهل الكتاب فمتفقون على الجزاء بعد الموت، ولكن الجزاء في الدنيا متفق عليه من أهل الأرض، فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة، ومن هذا المنطلق الإسلامي يقول العلاّمة الشيخ عبد العزيز[1] السّلمان:

أيـا علمـاءَ الـديـن مَـالـي أَرَاكُـم
تغـاضيتـم عـن مُنكَـراتِ الأوامـرِ

أمّا الأمرُ بالمعروف والنهي فَرضُكُم
فـأعـرضتـم عـن ذاكَ اْعْتـراضَ هـاجِـرِ

أمَـا أَخَـذَ الميثـاق ربـي عليكـم
بـأن تنصحـُوا بـالحـق أهـل المنـاكِـرِ

فإنْ هُمُ عصوكمُ فاهجُروهمُ وهاَجروا
تنـالـوا بنصـرالـديـن أجـرْ المهـاجِـرِ

إذا كـان هـذا حـال قـاضٍ وعـالِـم
وحـالُ وزيـر أو أميـرٍ مُظـاهِـرِ

---

(١) العالم العلاّمة المفسر الأصولي الفقيه الفرضي الورع الزاهد الشيخ عبد العزيز بن محمَّد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السّلمان، أبو محمد من الأساعدة من الرُّوَقة من قبيلة عُتَيْبَة القبيلة العربية المشهورة. ولد في مدينة عنيزة سنة سبعة أو تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة.

ولـم تنتهـوا عـن غيِّكـم فتَـرَقَّبُـوا
صَـواعـق قهَّـارٍ وسطـوة قـاهِـرِ
فمـا الله عمَّـا تعملـون بغـافِـلٍ
ولكنـه يُملـي لِطَـاغٍ وفـاجِـرِ
وقـد أرسـل الآيـات منـه مُخـوِّفـاً
ولكـن غفلتـم عـن سمَـاعِ الـزواجِـر
أجيبُـوا عبـاد الله صـوت منـاصـح
دعـاكـم بصَـوتٍ مـا لـه مـن مُنـاصِـرِ
وقُـومُـوا سِـراعـاً نحـو نصَـرة دينكُـمْ
إذا رُمتـم فـي الحَشْرِ غُفـران غـافِـرِ
وحُسْـنُ خِتَامِ النَّظْمِ أَزْكَـى صـلاتِنـا
علـى المُصطفـى والآلِ أهـل المفـاخِـرِ

ولهذا لا بد من طاعة آمر وناهٍ، فعندما طلب الملك الظاهر أن تقع فُتْيا من قبل العلماء فوقعها الكثير من فقهاء الشام، بعضهم خوفاً وبعضهم طمعاً، وامتنع خلق من العلماء، بل أفتوا بعدم الجواز فعُرضوا على السيف وقُتلوا، ثم طلب من النووي أن يوقع فماذا كان؟ دونك القصة كما وجدناها[1]: لما خرج الملك الظاهر لقتال التتار بالشام طلب فتاوى العلماء بأنه يجوز أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو، فكتب له فقهاء الشام بذلك، وقتل خلقاً من العلماء كثيراً بسبب إفتائهم له بعدم الجواز، فقال: هل بقي أحد؟ فقالوا: نعم

(١) السخاوي: ص ٨٠.

بقي الشيخ محيي الدين النووي، فطلبه فقال: اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع وقال: لا، فقال: ما سبب امتناعك؟ فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار[1]، وليس لك مال، ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك كلهم عنده حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حق من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليك بالبنود الصوف بدلاً عن الحياصات الذهب، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، ولم يبق في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض، أفتيتك بأخذ المال من الرعية، وإنما يستعان على الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار نبيه ﷺ.

فغضب السلطان من كلامه، وقال: اخرج من بلدي - يعني دمشق - فقال: السمعُ والطاعة، وخرج إلى نوى، فقيل للملك: ما سبب عدم قتلك له، فقال: كلما أردت قتله أرى على عاتقه سَبْعَيْن يريدان افتراسي فامتنع عن ذلك.

وقد صدق قول الله تعالى: ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾[2]. وصدق قول الرسول الأمين ﷺ: «لا تخاف في الله لومة لائم»[3]. هذا

---

(١) بندقدار هو: ركن الدين أبو الفتوح بيبرس البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، صاحب مصر والشام، مات بدمشق في العشر الأخير من المحرم سنة ٦٧٦ هـ.

(٢) سورة الحج، آية: ١٣٨.

(٣) رواه البخاري في: (٩٣) كتاب الأحكام - (٤٣) باب كيف يبايع الناس - حديث رقم: (٧٢٠٠).

ورواه مسلم في: (٣٣) كتاب الإمارة - (٨) باب وجوب طاعة الأمراء في غير =

كلام النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وذلك هو الواجب على جميع الخلق، قال الله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[١]. وقال: ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً** ﴾[٢] وقال: ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين** ﴾[٣].

= معصية ـ حديث رقم: (٤١).

ورواه النسائي في: (٤٤) كتاب البيوع ـ (٤٤) باب بيع الشعير بالشعير ـ حديث رقم: (٢).

ورواه ابن ماجه في: (٢٤) كتاب الجهاد ـ (٤١) باب البيعة ـ حديث رقم: (٢٨٦٦).

ورواه مالك في «الموطأ»: (٢١) كتاب الجهاد ـ (١) باب الترغيب في الجهاد ـ حديث رقم: (٥).

ورواه أحمد: ١٥٩/٥، ١٧٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٥.

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٣) سورة النساء، آية: ١٣.

وكان النبي ﷺ يقول في خطبة الجمعة: «إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»[١].

وكان يقول في خطبة الحاجة: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصمها فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئاً»[٢].

وهذه محنة جديدة ثبت فيها قدم الإمام النووي أمام هضبة من الظلم، تمسّك فيها بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، يقول ابن العطار[٣]: وكان من قصة ابن النجار أنه سعى في إحداث أمور على المسلمين باطلة، فقام الشيخ - أي النووي - مع جماعة من علماء المسلمين، فأزالوها بإذن الله تعالى، ونصر الله الحق وأهله فغضب لذلك لكراهيته مصلحة المسلمين، ونصيحة الدين، وبعث إلى الشيخ

---

(١) رواه البخاري في: (٩٦) كتاب الاعتصام - (٢) باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ - حديث رقم: (٧٢٧٧).
ورواه مسلم في: (٧) كتاب الجمعة - (١٣) باب تخفيف الصلاة والخطبة - حديث رقم: (٤٣).
ورواه ابن ماجه في: «المقدمة» - (٧) باب اجتناب البدع والجدل - حديث رقم: (٤٥).
ورواه أحمد في «مسنده»: ٣/ ٣١، ٣١٩، ٣٧١.

(٢) رواه مسلم في: (٧) كتاب الجمعة - (١٣) باب تخفيف الصلاة والخطبة - حديث رقم: (٤٨).
ورواه أبو داود في: (٢) كتاب الصلاة - (٢٢٧) باب الرجل يخطب على قوس - حديث رقم: (١٠٩٧).
ورواه أحمد: ٤/ ٣٥٦، ٣٧٩.

(٣) تحفة الطالبين: ٤٥ - ٤٧.

يهدده، ويقول: أنت الذي تُحزِّب العلماء على هذا. فكتب إليه الشيخ ـ قدّس الله روحه ـ كتاباً هذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، من محيي الدين النووي: اعلم أيها المقصر في التأهب لمعاده، التارك مصلحة نفسه في تهيئة جهازه له وزاده، إني كنت لا أعلم كراهتك لنصرة الدين ونصيحة السلطان والمسلمين، حملاً مني لك على ما هو شأن المؤمنين من إحسان الظن بجميع الموحدين، وربما كنت أسمع في بعض الأحيان من يذكرك بغش المسلمين، فأنكر عليه بلساني وبقلبي لأنها غيبة لا أعلم صحتها. ولم أزل على هذا الحال إلى هذه الأيام، فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان ـ وفقه الله الكريم للخيرات ـ: إن هذه البساتين يحل انتزاعها من أهلها عند بعض العلماء، وهذا من الافتراء الصريح والكذب القبيح، فوجب عليَّ وعلى جميع من علم هذا من العلماء أن يبين بطلان هذه المقالة، ودحض هذه الشناعة، وأنها خلاف إجماع المسلمين وأنها لا يقول بها أحد من أئمة الدين، وأن ينهوا ذلك إلى سلطان المسلمين، فإنه يجب على الناس نصيحته لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «الدين النصيحة: لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم»[1]. وإمام المسلمين في هذا العصر هو السلطان وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه

---

(١) رواه البخاري في: (٢) كتاب الإيمان ـ (٤٢) باب قول النبي ﷺ «الدّين: النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم».

ورواه مسلم في: (١) كتاب الإيمان ـ (٢٣) باب بيان أن الدين النصيحة ـ حديث رقم: (٩٥).

بكرامته، وقد شاع بين الخاص والعام أن السلطان كثير الاعتناء بالشرع، ومحافظ على العمل به، وأنه بنى المدارس لطوائف العلماء ورتب القضاة من المذاهب الأربعة، وأمر بالجلوس في دار العدل لإقامة الشرع، وغير ذلك مما هو معروف من اعتناء السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ بالشرع، وأنه إذا طلب طالب منه العمل بالشرع أمر بذلك ولم يخالفه؛ فلما افترى هذا القائل في أمر البساتين ما افتراه، ودلَّس على السلطان، وأظهر أن انتزاعها جائز عند بعض العلماء، وغش السلطان في ذلك، وبلغ ذلك علماء البلد، وجب عليهم نصيحة السلطان، وتبين الأمر له على وجهه، وأن هذا خلاف إجماع المسلمين، فإنه يجب عليهم نصيحة الدين والسلطان، وعامة المسلمين، فوفقهم الله تعالى للاتفاق على كتب كتاب يتضمن ما ذكرته على جهة النصيحة للدين والسلطان والمسلمين، ولم يذكروا فيه أحداً بعينه، بل قالوا: من زعم جواز انتزاعها فقد كذب، وكتب علماء المذاهب الأربعة خطوطهم بذلك، لما يجب عليهم من النصيحة المذكورة، واتفقوا على تبليغها ولي الأمر ـ أدام الله نعمه عليه ـ لينصحوه، ويبنوا حكم الشرع.

ثم بلَّغني جماعات متكاثرات في أوقات مختلفات، حصل لي العلم بقولهم إنك كرهت سعيهم في ذلك، وشرعت في ذم فاعل ذلك، وأسندت معظم ذلك كله لي ـ ويا حبذا ذلك من صنيع ـ.

وبلّغني عنك هؤلاء الجماعات: أنك قلت: قولوا ليحيى هذا الذي سعى في هذا فينكف عنه، وإلا أخذت منه دار الحديث.

وبلّغني عنك هؤلاء الجماعات: أنك حلفت مرات بالطلاق الثلاث أنك ما تكلمت في انتزاع هذه البساتين، وإنك تشتهي إطلاقها.

فيا ظالم نفسه، أما تستحي من هذا الكلام المتناقض، فكيف يصح الجمع بين شهوتك وإطلاقها وأنك لم تتكلم فيها، وبين كراهتك السعي في إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين.

ويا ظالم نفسه، هل تعرض لك أحد بمكروه أو تكلم فيك بغيتك؟ وإنما قال العلماء: من قال هذا للسلطان فقد كذب ودلّس عليه وغشه ولم ينصحه، فإن السلطان ما يفعل هذا إلا لاعتقاده أنه حلال عند بعض العلماء، فبينوا أنه حرام عند جميعهم. وأما أنت فقد قلت إنك لم تتكلم فيها، وحلفت على هذا بالطلاق الثلاث، فأي ضرر عليك في إبطال قول كاذب على الشرع، غاش مدلس على السلطان؟ قد قلت: إنه غيرك، وكيف تكره السعي على شيء قد أجمع الناس على استحسانه، بل هو واجب على من قدر عليه، وأنا بحمد الله من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت، وأما نجاحه فهو إلى الله تعالى مقلب القلوب والأبصار.

ثم إني أعجب غاية العجب من اتخاذك إياي خصماً، ويا حبذا من اتخاذ، فإني بحمد الله تعالى أحب في الله تعالى وأبغض فيه، فأحب من أطاعه وأبغض من خالفه، وإذا أخبرت عن نفسك بكراهتك السعي في مصلحة المسلمين ونصيحة السلطان، فقد دخلت في جملة المخالفين، وصرت ممن نبغضه لله رب العالمين، فإن ذلك من الإيمان كما جاءت به الآثار الصحيحة المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار.

ارضَ لمـــن غـــاب عنـــك غيبتَـــه
فـــذاك ذنـــب عقـــابـــه فيـــه

ويا ظالم نفسه، أنا ما خاصمتك أو كلمتك أو ذكرتك، أو بيني وبينك مخاصمة أو منازعة أو معاملة في شيء، فما بالك تكره فعل خير يسرني الله الكريم له ﴿ **وما نَقَموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾[1].

بل أنت لسوء نظرك لنفسك تنادي على نفسك، وتشهد الشهود بكراهة هذه النصيحة التي هي مصرحة بأنك أنت الذي تكلمت في هذه البساتين، وأن الطلاق واقع عليك، وما أبعد أن تكون شبيهاً بمن قال الله تعالى فيهم: ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾[2].
ويا عدو نفسه، أتراني أكره معاداة من سلك طريقتك هذه، بل والله أحبها وأوثرها، وأفعلها بحمد الله تعالى، فإن الحب في الله والبغض فيه واجب علي وعليك وعلى جميع المكلفين، ولست أدري أي غرض لك في حرصك على الإنكار على الساعين في إعظام حرمات الدين، ونصيحة السلطان والمسلمين؟.

فيا ظالم نفسه، انته عن هذا، وارجع عن طريقة المباهتين المعاندين. وأعجب من هذا تكرير الإرسال إليَّ بزعمك الفاسد كالمتوعد: إن لم ينكفّ أخذت منه دار الحديث، فيا ظالم نفسه وجاهل الخير وتاركه، أطلعت على قلبي أني متهافت عليها، أو علمت

---

(١) سورة البروج، آية: ٨.

أني منحصر فيها، أو تحققت أني معتمد عليها مستند إليها، أو عرفت أني أعتقد انحصار رزقي فيها، أو ما علمت لو أنصفت كيف كان ابتداء أمرها، أو ما كنت حاضراً مشاهداً أخذي لها، ولو فرض تهافتي عليها أكنت أوثرها على مصلحة عامة للمسلمين مشتملة على نصيحة لله وكتابه ورسوله ﷺ والسلطان وعامة المسلمين؟!

هذا لم أفعله ولا أفعله إن شاء الله تعالى، وكيف تتوهم أني أترك نصيحة الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامتهم مخافة من خيالاتك؟ إن هذه لغباوة منك عظيمة، ويا عجباً منك كيف تقول هذا؟ أأنت رب العالمين بيدك خزائن السموات والأرضين، وعليك رزقي، ورزق الخلائق أجمعين؟!

أم أنت سلطان الوقت تحكم في الرعية بما تريد، فلو كنت عاقلاً ما تهجمت على التفوه بهذا الذي لا ينبغي أن يقوله إلا رب العالمين أو سلطان الوقت، مع أن سلطان الوقت منزه عن قول الباطل، مرتفع المحل عن فعل ما ذكرت يا ظالم. فإن كنت تقول هذا استقلالاً منك فقد افتت عليه، واجترأت على أمر عظيم ونسبته إلى الظلم عدواناً، وإن كنت تقوله عنه كذبت عليه؛ فإنه بحمد الله حسن الاعتقاد في الشرع، وذلك من نعم الله تعالى عليه، والسلطان بحمد الله وفضله أكثر اعتقاداً في الشرع من غيره ومعظِّم حرماته، وليس هو ممن يقابل ناصحه بهذيانات الجاهلين، وترهات المخالفين، بل يقبل نصائحهم كما أمره الله تعالى.

واعلم أيها الظالم نفسه أني ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ لا أترك شيئاً أقرر عليه من السعي في مناصحة الدين والسلطان في هذه القضية، وإن

رغمت أنوف الكارهين، وإن كره ذلك أعداء المسلمين، وفِرَق حزب المجادلين، وسترى ما أتكلم به إن شاء الله تعالى عند هذا السلطان وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه الله ببركاته في هذه القضية؛ غيرة على الشرع، وإعظاماً لحرمات الله تعالى، وإقامة الدين، ونصيحة للسلطان وعامة المسلمين.

ويا ظالم نفسه، أجلب بخيلك ورجلك إن قدرت، واستعن بأهل المشرقين، وما بين الخافقين، فإني بحمد الله تعالى في كفاية تامة، وأرجو من فضل الله تعالى أنك لا تقوى لمنابذة أقل الناس مرتبة، وأنا بحمد الله تعالى ممن يود القتل في طاعته تعالى، أتقوى يا ضعيف الحيل لمنابذتي؟ أبَلَغَك يا هذا أني لا أومن بالقدر؟! أو بلغك أني أعتقد أن الآجال تنقص، وأن الأرزاق تتغير؟ أما تفكر في نفسك في قبيح ما أتيته من الفعال، وسوء ما نطقت به من المقال. أيا ظالم نفسه، من طلب رضى الله تعالى ترده خيالاتك وتمويهاتك وأباطيلك وترهاتك؟!

وبعد هذا كله أنا أرجو من فضل الله أن يوفق السلطان ـ أدام الله نعمه عليه ـ لإطلاق هذه البساتين، وأن يفعل فيها ما تقر به أعين المؤمنين، ويرغم به أنف المخالفين، فإن الله تعالى قال: ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾[1] والسلطان بحمد الله تعالى يفعل الخيرات فما يترك هذه القضية تفوته.

واعلم أنك عندي بحمد الله تعالى أقل مما أَهتم بشأنك أو أَلتفت إلى

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٢٨.

خيالاتك وبطلانك، ولكني أردت أن أعرفك بعض أمري لتدخل نفسك في منابذة المسلمين بأسرهم، ومنابذة سلطانه وفقه الله تعالى على بصيرة منك، وترتفع عنك جهالة بعض الأمر ليكون دخولك بعد ذلك معاندة لا عذر لك فيها.

ويا ظالم نفسه، أتتوهم أنه يخفى علي وعلى من سلك طريق نصائح المسلمين وولاة الأمر وحماة الدين، أن نعتقد[1] صدق قول الله تعالى: ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا** ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾[5]، وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خذلان من خذلهم»[6] والمراد بهذه

---

(١) في الأصل «أنا لا نعتقد» وفيه إشكال من حيث المعنى.
(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.
(٣) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.
(٤) سورة محمد، آية: ٧.
(٥) سورة الروم، آية: ٤٧.
(٦) رواه البخاري في: (٦١) كتاب المناقب ـ باب (٢٨) حديث رقم: (٣٦٤٠).
ورواه مسلم في: (٣٣) كتاب الإمارة ـ (٥٣) باب قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» ـ حديث رقم: (١٧٠).
ورواه الترمذي في (٣١) كتاب الفتن: (٢٧) باب ما جاء في الشام ـ حديث رقم: (٢١٩٢).
قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح. =

الطائفة أهل العلم كذا قاله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أهل العلم والفهم، وقوله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1] هذا فيمن كان في واحد من الناس فكيف الظن بمن هو في عون المسلمين أجمعين؟! مع إعظام حرمات الشرع ونصيحة السلطان وموالاته وبذل النفس في ذلك. واعلم أني والله لا أتعرض لك بمكروه سوى أن أبغضك لله تعالى، وما اقتناعي عن التعرض لك بمكروه من عجز، بل أخاف الله رب العالمين من إيذاء من هو من جملة الموحدين.

وقد أخبرني من أثق بخبره وصلاحه وكراماته وفلاحه؛ أنك إن لم تبادر بالتوبة حلَّ بك عقوبة عاجلة تكون بها آية لمن بغدك، ولا يأثم بها أحد من الناس، بل هو عدل من الله تعالى يوقعه بك عبرة لمن بعدك. فإن كنت ناظراً لنفسك فبادر بالرجوع من سوء أفعالك، وتدارك ما أسفلته من قبيح مقالك، قبل أن يحل بك ما لا تُقال به عثرتك، ولا تغتر بسلامتك وثروتك ووصلتك وفكر في قول القائل:

قــد نــادت الــدنيــا علــى نفسهــا
لــو كــان فــي العــالــم مــن يسمــع

كــم واثــق بــالعمــر واريتــه
وجــامــع بــدَّدت مــا يجمــع

= ورواه ابن ماجه في «المقدمة» الباب الأول ـ حديث رقم: (٧).
ورواه أحمد في «مسنده»: ٣/ ٤٣٦، ٤/ ١٩٧، ١٠١، ٥/ ٣٤، ٣٥، ٢٧٩.

(١) رواه أحمد في «مسنده»: ٢/ ٢٧٤.

والسلام على من اتبع الهدى، والحمد لله رب العالمين».

وقد صدق قوله الله تعالى: ﴿ **فوجدَا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلَّمنـٰهُ من لَدُنَّا عِلماً قال له موسىٰ هل أتَّبِعُكَ على أن تعلِّمني مِمَّا عُلِّمتَ رُشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبْراً قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فإن اتَّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدِث لك منه ذِكراً** ﴾(١). وقد بعث الله رسوله محمداً ﷺ بأفضل المناهج والشرائع، وأنزل عليه أفضل الكتب، وأرسله إلى خير أمة أخرجت للناس، وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليه النعمة، وحرم الجنة إلا على من آمن به وبما جاء به، ولم يقبل من أحد إلا الإسلام الذي جاء به، فمن ابتغى غيره ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين. وأخبر في كتابه أنه أنزل الكتاب والحديد ليقوم الناس بالقسط فقال تعالى: ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز** ﴾(٢) ولهذا أمر النبي ﷺ أمته بتولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، أو إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى، ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم»(٣)، وفي مسند الإمام

---

(١) سورة الكهف، آية: ٦٥.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) سبق تخريجه.

أحمد عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلاّ أمَّروا أحدهم»[1] فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك، ولهذا كانت الولاية لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان من أفضل الأعمال الصالحة، حتى قد روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر»[2]، ولهذا قال الشعراء في هذا الموضع كثير، وأفضل ما قيل في هذا النهج أبيات شاعر الإسلام الأديب الكبير محمد رجب البيومي[3]:

كـلّ منـك الحجـا وضـاق الفهـمُ
لا تُعـارض ففـوق علمـك علـمُ

قـد تعمّقـت راصـداً أحجيـاتٍ
غـامضـات كـأنّهـا الطّلْسـمُ

هـادفـاً لبّهـا الصميـم فتعييـك
نـزوحـاً، وأيـن منـك العـزمُ

والـدجـى ضـارب حـواليـك سـداً
سـرمـديـا، ومـا لـديـك النجـمُ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) شاعر الإسلام الأديب الكبير الناقد الملتزم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة سابقاً، يكتب في الأدب منذ نصف قرن. ولد بالمنصورة عام (١٩٢٣ م ـ ١٣٤٤ هـ).

كلّما رمت لمحة من شعاع
طمس النور أفقك المدلهم
غيهب فوق غيهب ماثل الموج
على المرج إذ يمور اليمّ
والغريب الشهيد في أسفل القاع
طريح، وأراه ذلك الخضمُّ
هكذا! العقل يستجيش جناحيه
ويثنيه عزمه أن يسمو[1]

ويقول ابن العطار[2]: ومما كتبه بسبب الفقهاء لما رسم بأن الفقيه لا يكون منزَّلاً في أكثر من مدرسة واحدة وهذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم. خدمة الشرع ينهون أن الله تعالى أمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ونصيحة ولاة الأمور وعامة المسلمين، وأخذ عن العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين، ومناصحة المسلمين، وحث على تعظيم حرماته، وإعظام شعائر الدين، وإكرام العلماء، وأتباعهم، وقد بلغ الفقهاء أنه رسم في حقهم بأن يغيِّروا عن وظائفهم، ويُقطَعوا عن بعض مدارسهم، فتنكدت بذلك أحوالهم، وتضرروا بهذا التضييق عليهم، وهم محتاجون ولهم عيال، وفيهم الصالحون والمشتغلون بالعلوم، وإن كان فيهم أفراد لا يلتحقون بمراتب غيرهم، فهم منتسبون إلى العلم ومشاركون فيه، ولا تخفى مراتب أهل العلم

(١) ديوان حنين الليالي ـ لشاعر الإسلام المترجم له.
(٢) تحفة الطالبين: ص ١٨.

وفضلهم وثناء الله تعالى عليهم، وبيانه مزيتهم على غيرهم، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ تضع أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان»[1].

واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة والاحسان إليهم، ومعاضدتهم، ودفع المكروهات عنهم، والنظر في أحوالهم بما فيه الرفق بهم، فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[2] وروى أبو عيسى الترمذي[3] بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يقول لطلبة العلم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن رجالاً يأتونكم يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[4] والمسؤول أن لا يغير على هذه الطائفة شيء، وتستجلب

---

(١) رواه أبو داود في: (٢٤) كتاب العلم ـ (١) باب الحث على طلب العلم ـ حديث رقم: (١).
ورواه الترمذي في: (٣٩) كتاب العلم ـ (١٩) باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ـ حديث رقم: (٢٦٨١).
ورواه النسائي في: (١) كتاب الطهارة ـ (١١٤) باب الوضوء من الغائط والبول ـ حديث رقم: (١). ورواه ابن ماجه في «المقدمة» (١٧) باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ـ حديث رقم: (٢٢٣). ورواه أحمد في «مسنده»: (٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤١، ٥/ ١٩٦.

(٢) رواه أحمد في «مسنده»: ٦/ ٦٢، ٩٣، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠.

(٣) الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ولد سنة تسع ومائتين، صاحب «الجامع الصحيح» و «العلل». توفي سنة سبع وتسعين ومائتين.

(٤) رواه الترمذي في: (٣٩) كتاب العلم ـ (٤) باب ما جاء في الاستيصاء بمن يطلب العلم ـ حديث رقم: (٢٦٥٠).

دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[1]، وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم، فقال: أقمت لك بها جنداً لا تُردّ سهامهم بالأسحار، فاستصوب فعله وساعده عليه. والله الكريم يوفق الجناب دائماً لمرضاته والمسارعة إلى طاعته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذه صورة حصلنا عليها من مجموع رسائله التي كان يبعث بها إلى الملوك والأمراء، وهذه الرسائل تحمل في طياتها كل ما هو أمر بالمعروف، وما هو نهي عن المنكر، وهذه الرسائل محمولة على الترغيب والترهيب، وعدم الخوف إلا من الله سبحانه وتعالى، لا يقبل صاحبها الوعيد والتهديد، ولا يخاف في الله لومة لائم.

---

(١) رواه أبو داود في: (١٥) كتاب الجهاد ـ (٧٥) باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة ـ حديث رقم: (٢٥٩٤).
ورواه الترمذي في: (٢١) كتاب الجهاد ـ (٢٤) باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين ـ حديث رقم: (١٧٠٢).
قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.
ورواه النسائي في: (٢٥) كتاب الجهاد ـ (٤٣) باب الاستنصار بالضعيف ـ حديث رقم: (٢).
ورواه أحمد في «مسنده»: ١٩٨/٥.

الفصل الخامس

١ ـ ثناء العلماء عليه

٢ ـ وفاته

١ ـ ثناء العُلماء عليه

هناك الكثير من ثناء العلماء عليه، نذكر منها ما تيسّر، فقد قال تلميذه وملازمه ابن العطار: رأيت منه أموراً تحتمل مجلدات.

قال[١]: وكتب شيخنا أبو عبد الله محمد بن الظهير الحنفي الأربلي شيخ الأدب في وقته ـ رحمه الله ـ كتاب العمدة في تصحيح التنبيه للشيخ ـ قدّس الله روحه ـ وسألني مقابلته معه بنسختي ليكون له رواية عنه مني، فلما فرغنا من ذلك قال لي: ما وصل الشيخ تقي الدين بن الصلاح إلى ما وصل إليه الشيخ محيي الدين من العلم في الفقه والحديث واللغة وعذوبة الألفاظ.

وقال[٢] أيضاً: قال لي الشيخ العارف المحقق المكاشف أبو عبد الرحيم محمد الأخميمي[٣] قدس الله روحه ونور ضريحه: كان الشيخ محيي الدين رحمه الله سالكاً منهاج الصحابة رضي الله عنهم، ولا أعلم أحداً في عصرنا سالكاً على مناهجهم غيره.

---

(١) تحفة الطالبين: ١٠/ب.

(٢) الأخميمي هو: محمد بن الحسن بن اسماعيل، نزيل سفح قاسيون، كان صاحب توجه وتعبد، وللناس فيه عقيدة عظيمة. توفي سنة ٦٨٤ هـ.

(٣) تحفة الطالبين: ١٠/ب.

وقال ابن العطار[1] يصفه: شيخي وقدوتي، الإمام ذو التصانيف المفيدة والمؤلفات الحميدة، أوحد دهره، وفريد عصره، الصوَّام القوام، الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، صاحب الأخلاق الرضية، والمحاسن السنية، العالم الرباني، المتفق على علمه وإمامته، وجلالته وزهده، وورعه وعبادته، وصيانته في أقواله وأفعاله وحالاته، له الكرامات الطافحة، والمكرمات الواضحة، والمؤثر بنفسه وماله للمسلمين، والعالم بحقوقهم وحقوق ولاة أمورهم بالنصح والدعاء في العالمين، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفقه والاجتهاد بالخروج من خلاف العلماء ولو كان بعيداً، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب، يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة. وكان محققاً في علمه ومتونه، مدققاً في عمله وشؤونه، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، عارفاً بأنواعه كلها من صحيحه وسقيمه، وغريب ألفاظه، وصحيح معانيه، واستنباط فقهه، حافظاً للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هجر، سالكاً في كل ذلك طريقة السلف. قد صرف أوقاته كلها في أنواع العمل والعلم، فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة، وبعضها للتلاوة والتدبر، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال الذهبي[2]: مفتي الأمة، شيخ الإسلام، الحافظ النبيه، أحد

---

(١) تحفة الطالبين: ٢/ب و ٩/ب.

(٢) نقلاً عن السخاوي: ص ٥٨.

الأعلام، علم الأولياء. وقال[1]: الشيخ القدوة، الحافظ الزاهد العابد، الفقيه المجتهد الرباني، شيخ الإسلام، حسنة الأنام محيي الدين، صاحب التصانيف التي سارت بها الركبان، واشتهرت بأقاصي البلدان. . . إلى أن قال: لازم الاشتغال والتصنيف محتسبا في ذلك مبتغياً وجه الله من التعبد والصوم والتهجد والذكر والأوراد، وحفظ الجوارح، وذم النفس، والصبر على العيش الخشن، وملازمة كلية لا مزيد عليها، وكان مع ملازمته التامة للعلم، ومواظبته لدقائق العمل، وتزكية النفس من شوائب الهوى، وسيىء الأخلاق، ومحققها من أغراضها؛ عارفاً بالحديث، قائماً على أكثر فنونه، عارفاً برجاله، رأساً في نقل المذهب، متضلعاً من علوم الإسلام.

وقال[2] أيضاً: وكان ـ أي النووي ـ مع تبحره في العلم وسعة معرفته بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك بما قد سارت به الركبان رأساً في الزهد، وقدوة في الورع، عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قانعاً باليسير، راضياً عن الله، والله عنه راض، مقتصداً إلى الغاية في ملبسه ومطعمه وانائه، تعلوه سكينة وهيبة، فالله يرحمه ويسكنه الجنة بمنه.

وقال الذهبي[3]: كان الشيخ محيي الدين قد صار إليه ثلاث مراتب، كل مرتبة منها لو كانت لشخص لشدت إليه آباط الإبل من

---

(١) نقلاً عن السخاوي: ص ٥٨.

(٢) العبر: ٥/ ٣١٢.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٧٣.

أقطار الأرض، المرتبة الأولى: العلم والقيام بوظائفه. الثانية: الزهد في الدنيا وجميع أنواعها. الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال ابن كثير[1]: وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحري والانجماح عن الناس، على جانب كبير، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره.

وقال ابن كثير في طبقات الشافعية له[2]: الشيخ الإمام، العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب ومهذبه، وضابطه ومرتبه، أحد العباد والعلماء الزهاد، وكان على جانب كبير من العمل والعلم والزهد والتقشف، والاقتصاد في العيش، والصبر على خشونته، والتورع الذي لم يبلغنا عن أحد في زمانه، ولا قبله بدهر طويل.

وقال اليافعي[3]: النووي فقيه إمام شيخ الإسلام، مفتي الأنام، المحدث المتقن، المحقق المدقق، النجيب الحبر المفيد، القريب والبعيد، محرر المهذب ومهذبه وضابطه ومرتبه، أحد العباد الورعين الزهاد، العالم العامل، المحقق الفاضل، الولي الكبير، السيد الشهير، ذو المحاسن العديدة والسيرة الحميدة والتصانيف المفيدة، الذي فاق جميع الأقران، وسارت بمحاسنه الركبان، واشتهرت فضائله في سائر البلدان، وشوهدت منه الكرامات وارتقى في أعلى المقامات، ناصر السنة، ومعتمد الفتاوى.

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٧٩.
(٢) ترجمة النووي للسخاوي: ص ٦١.
(٣) مرآة الجنان: ٤/ ١٨٢.

وقال الشيخ شمس الدين بن فخر الحنبلي: كان النووي إماماً بارعاً حافظاً متقناً، أتقن علوماً جمة وصنف التصانيف الجمة، وكان شديد الورع والزهد، تاركاً لجميع الرغائب من المأكول إلا ما يأتيه به أبوه من كعك وتين.

قلت: وكان النووي رحمه الله مع قلّة حاله، كان يتصدق من مطعمه الذي يأتي به أبوه على الفقراء والمساكين، راضياً بالقليل، زاهداً في الكثير، ليس في قلبه خردلة من حب الدنيا وملذاتها.

وقال اليافعي[١]: لعمري إنه عديم النظير في زهده وورعه وآدابه وجميل سيرته، وسائر محاسنه فيمن بعده من العلماء.

وقال التاج السبكي[٢]: الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين، حجة الله على اللاحقين، ما رأت الأعين أزهدَ منه في يقظة ومنام، ولا عاينت أكثر اتباعاً منه لطرق السالفين من أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، له التصانيف المفيدة، والمناقب الحميدة، والخصائل التي جمعت طارف كل فضل وتليده، والورع الذي خرب به دنياه، وجعل دينه معموراً، والزهد الذي كان يحيي به سيداً وحصوراً. هذا إلى قدر في العلم لو أطل على المجرة لما ارتضى سرياً في أعطافها، أو جاور الجوزاء لما استطاب مقاماً في أوطانها، أو حل في دارة الشمس لأنف من مجاورة سلطانها. وطالما فاه بالحق لا تأخذه لومة لائم، ونادى بحضرة الأسود الضراغم، وصدع بدين الله

---

(١) مرآة الجنان: ٤/ ١٨٢.
(٢) الطبقات الكبرى: ٨/ ٣٩٧.

بمقال ذي سريرة يخاف يوم تبلى السرائر، ونطق معتصماً بالباطن الظاهر غير ملتفت إلى الملك الظاهر، وقبض على دينه والجمر يلتهب، وصمم على مقاله والصارم للأرواح ينتهب، لم يزل طول عمره على طريقة أهل السنة والجماعة، مواظباً على الخير لا يصرف منه ساعة في غير طاعة. وقال: كان قطب زمانه، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه. والتطويل بذكر كراماته تطويل في مشهور، وإسهاب في معروف، وقد سافرت لزيارة قبره بنوى وزرته، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وجملة القول: إنه كان عالماً بالفقه وفروعه من أقوال الشافعي رحمه الله وأوجه أصحابه، مكث نحو عشرين سنة، يفتي ويعلم الناس العلم والفقه والحديث والأدب والزهد، وليس في عصره في بلاد المسلمين مثله، محققاً حافظاً متقناً ورعاً، مدققاً في الحديث، عالماً بصحيحه وحسنه، وسقيمه وغريبه وأحكامه عارفاً بلغته وأسماء رجاله، وضبطهم وجرحهم وتعديلهم ومواليدهم ووفياتهم، محققاً في الألفاظ المشكلة، له في متونه يد طولى، كثير النقل جداً، مداوماً للمطالعة والتأليف، عارفاً بالأصلين معرفة جيدة، وبالقراءات السبع وغيرها، كثير الخبرة بمذاهب العلماء المشهورة والمهجورة، لين القلب، سالكاً طريق السلف في الزهد في الدنيا، والمبالغة في الخشوع والورع. غزير الدمعة، كثير الصمت حافظاً للسانه أشد الحفظ، غاضاً للطرف، طويل الفكر، حسن الأخلاق جداً، إذا آذاه أحد، يقول له: يا مبارك الحال، مثابراً على الصوف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أشد المواطن وأصعبها، محاسباً لنفسه. حافظاً

لأوقاته، قد جزأ كل وقت منها لنوع من العمل، فغالبها للاشتغال بالعلم، وبعضها للتعليم والعبادة، كالصلاة بالليل والتسبيح والقراءة بالتدبر. أثنى عليه الأئمة الصلحاء والعلماء العارفون، وتأسف المسلمون عليه بعد مماته أسفاً بليغاً، وجزعوا عليه جزعاً شديداً الخاص منهم والعام، والمادح في حال حياته والذام.

٢ ـ وفاته

قال الذهبي[١]: سافر الشيخ ـ أي الإمام النووي ـ فزار بيت المقدس، وعاد إلى نوى فمرض عند والده فحضرته المنية فانتقل إلى رحمة الله في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وست مائة، وقبره ظاهر يزار.

وقال ابن كثير[٢]: توفي في ليلة أربع وعشرين من رجب من هذه السنة بنوى، ودفن هناك رحمه الله وعفا عنا وعنه. وقيل: في أواخر حياته سافر من دمشق إلى بلده نوى، وزار بيت المقدس والخليل، ثم عاد إلى بلده فمرض عند أبويه، وتوفي في ليلة الأربعاء أربعة وعشرين من رجب سنة ستمائة وستة وسبعين، رحمه الله ورضي عنه.

وقيل: سافر في آخر عمره إلى بلده نوى، وزار القدس والخليل، ثم رجع إلى نوى فمرض عند أبويه، وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء لست بقين من شهر رجب سنة ستمائة وستة وسبعين من هجرة أبي

(١) طبقات الحفاظ: ٤/ ١٤٧٣.
(٢) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٧٩.

القاسم ﷺ، ودفن ببلده نوى، وقبره مشهور بها، وكان لنبأ وفاته وقع أليم على دمشق وأهلها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأعلى درجاته في الجنات.

ويحكي التاج السبكي[1] قائلاً: لما مات النووي بنوى ارتجت دمشق وما حولها بالبكاء، وتأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، وأحيوا ليالي كثيرة لسَنَته.

وقد رثاه حين وفاته الكثير من أهل الخير، فقد نظّم فيه الشعراء قصائد ومدائح منهم الأديب نجم الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين محمد بن أمين الدين التغلبي، وأول قصيدته:

أعينـيَّ جـودا بـالـدمـوع الهـوامـل
وجـودا بهـا كـالسـاريـات الهـواطـل

كما رثاه المجد أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبد الله الكاتب الأديب المصري ثم الدمشقي، وهذه أول مرثيته:

الحمـــد للّـــه العظيـــم الهـــادي
جلـــت محـــامـــده عـــن التعـــداد

ورثاه بعد فضلاء الحنفية، وأول مرثيته:

مصـاب أصـاب القلـب والجفـن أرَّقـا
وخَطْـب أتـى بـالحـزن والصبـر فـرقـا

---

(١) (٢ ـ ٣) تحفة الطالبين: ٢/ب.

ورثاه الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مصعب، وأول قصيدته:

أكتـم حـزنـي والمـدامـع تبـديـه
لفقـد امـرىء كـل البـريـة تبكيـه

كما رثاه الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد المنيحي أحد فقهاء المدرسة الناصرية، وأول مرثيته:

سبـل العلـوم تقطعـت أسبـابهـا
وتعطلـت مـن حليهـا طـلابهـا

كما رثاه الشيخ أبو محمد إسماعيل البسطي بقصيدة تعدادها واحد وثلاثون بيتاً، وهذه أولها:

رزيـة محيـي الـديـن قـد عمـت الـورى
فلسـت تـرى إلا حـزينـاً مفكـرا

وقد رثاه محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الحنفي الأربلي بقصيدة طويلة، وضعها مؤلف تحفة الطالبين بين تراجم الإمام النووي رحمه الله، سوف نذكر منها هذه الأبيات:

عـزّ العـزاء وعـم الحـادث الجلـل
وخـاب بـالمـوت فـي تعميـرك الأمـل
واستوحشت بعدما كنت الأنيس لها
وسـاءهـا فقـدك الأسحـار والأُصُـل
وكنـت للـديـن نـوراً يستضـاء بـه
مسـدّداً منـك فيـه القـول والعمـل

وكنــت تتلــو كتــاب الله معتبــراً
لا يعتــريــك علــى تكــراره ملــل

وكنــت فــي سنــة المختــار مجتهــداً
وأنــت بــاليمــن والتــوفيــق مشتمــل

وكنــت زينــاً لأهــل العلــم مفتخــراً
علـى جـديـد كسـاهـم ثـوبُـك السَمَـلُ

وكنــت أسبغهــم ظــلاً إذا استعــرت
هــواجــر الجهــل والأطــلال ينتقــل

كســاك ربــك أوصــافــاً مجمَّلــة
يضيق عن حصرها التفصيل والجمل

أسلى كمـالُـك عـن قـوم مضـوا بـدلا
وعــن كمــالــك لا مســل ولا بــدل

فمثــل فقــدك تــرتــاع العقــول لــه
وفقــد مثلــك جــرح ليــس ينــدمــل

زهـدتَ فـي هـذه الـدنيـا وزخـرفهـا
عـزمـاً وحـزمـاً ومضـروب بـك المثـل

أعـرضـت عنهـا احتقـاراً غيـر محتفـل
وأنــت بــالسعــي فــي أخــراك محتفــل

عـزمـت عـن شهـوات مـا لعـزم فتـى
بهــا ســواك إذا عنــت لــه قبــل

ومن أدباء القرن العشرين الذين رثوا الإمام النووي شاعر الإسلام محمد[1] رجب البيومي، بهذه الأبيات الساخنات:

سجع الطير في الوكور فأبكاه
من الطير أنه يتغنى
نغمات تهز منه حناياه
فيشتاق أن يعالج لحنا
كلّما دوّت اللحون دعته
أن يعيد الصّدى ليبدع فنا
إن رأى خلوة من الناس غنى
بأمازيجه فرادى ومثنى

وقال[2]:

عبد اللَّه وحده فتظلت
أنفس تغتلي على الله ضغنا
أيشدّ العبد الرقيق على القوم
ولا يحتسي المنية هونا

وقال:

طاب دنيا فرف روحاً شفيفاً
أي قلب من قلبه البر أجنى؟
قدم المال مؤمناً يتزكّى
فمضى غانماً، وبوّء عدنا

---

(١) سبق ترجمته.
(٢) ديوان: «من نبع القُرآن» للدكتور البيومي السابق ترجمته. شاعر الإسلام.

وسوف نختم هذا الفصل بهذه القصة، والتي حكاها ابن العطار تلميذ الإمام النووي ـ عن وفاة شيخه ومعلمه ـ الإمام النووي ـ رحمهما الله ـ كما ذكرت في تحفة الطالبين[1]، قال علاء الدين بن العار: «وكنت جالساً بين يديه قبل انتقاله بشهرين أو نحوهما وإذا بفقير قد دخل عليه، وقال للشيخ: فلان من بلاد صرخد يسلم عليك، وأرسل معي هذا الإبريق لك، فقبله الشيخ وأمرني بوضعه في بيت حوائجه، فتعجبت منه لقبوله، فشعر بتعجبي فقال: أرسل إليّ بعض الفقراء زربولاً، وهذا إبريق، فهذه آلة السفر.

ثم بعد أيام يسيرة كنت عنده، فقال لي: قد أذن لي في السفر، فقلت: كيف أذن لك؟ قال: أنا جالس هنا ـ يعني بيته في المدرسة الرواحية، وقدامه طاقة مشرفة عليها مستقبلة القبلة ـ إذ مر عليَّ شخص في الهواء من هنا، ومركزاً يشير من غرب المدرسة إلى شرقها وقال: قم سافر لزيارة بيت المقدس، وكنت حملت كلام الشيخ على سفر العادة، فإذا هو السفر الحقيقي، ثم قال لي: قم حتى نودِّع أصحابنا وأحبابنا، فخرجت معه إلى القبور التي دفن فيها بعض مشايخه، فزارهم وقرأ شيئاً وبكى، ثم زار أصحابه الأحياء والشيخ يوسف الفقاعي والشيخ محمد الأخميمي، وشيخنا الشيخ شمس الدين بن أبي عمر شيخ الحنابلة ثم سافر صبيحة ذلك اليوم، وجرى لي معه وقائع، ورأيت منه أموراً تحتمل مجلدات، فسار إلى نوى وزار القدس والخليل عليه السلام، ثم عاد إلى نوى، ومرض

---

(١) (٢ ـ ٣) تحفة الطالبين: ٢/ب.

عقب زيارته لها في بيت والده، فبلغني مرضه فذهبت من دمشق لعيادته، ففرح رحمه الله بذلك، ثم قال لي ارجع إلى أهلك، وودعته وقد أشرف على العافية يوم السبت العشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة، ثم توفي في ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من رجب.

فبينا أنا نائم تلك الليلة إذا مناد ينادي على سدة جامع دمشق في يوم جمعة: الصلاة على الشيخ ركن الدين الموقع، فصاح الناس لذلك النداء، فاستيقظت فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فلم يكن إلا ليلة الجمعة عشية الخميس إذ جاء الخبر بعد موته رحمه الله، فنودي يوم الجمعة عقب الصلاة بموته، وصلي عليه بجامع دمشق. فتأسف المسلمون عليه تأسفاً بليغاً، الخاص والعام، والمادح والذام».

ويقول ابن العطار[1]: ودفن رحمه الله بقريته نوى، وقبره ظاهر يزار، وكان رحمه الله يريد أن يكون قبره على السنة، فيه علامة الفقر إلى الله، وعلامة الزهد الذي عاشه في دنياه، ولكن الموت لم يمهله حتى يوصي بذلك، وقومه يريدون رفع شأنه، وكل من لا يعرف أو يتجاهل يظن أن رفعة الشأن تكون بتعظيم القبور بتجصيصها أو تزيينها بلاط، أو تحويطها أو رفع المساجد عليها، وكل هذا منعه الشارع فالمقابر وقف على المسلمين، ولا يحق لأحد فيها أكثر من موضع تمديد جسده، وهذا ما صرح بمعناه النووي عليه رحمة الله في شرح صحيح مسلم، قلت: كان يريد رحمه الله أن يكون قبره على السنة،

---

(١) تحفة الطالبين: ص ٤٢.

وقومه يريدون بناء قبة عليه، ولكن الله أبى إلا ما يريد، فإنه لما توفي رحمه الله تعالى ودفن، أراد أهله وأقاربه وجيرانه أن يبنوا على ضريحه قبة، وأجمعوا على ذلك، إذ جاء رحمه الله في النوم إلى أكبر امرأة من قرابته ـ أظنها عمته ـ وقال لها: قولي لأخي والجماعة لا يفعلون هذا الذي قد عزموا عليه من البنيان، فإنه كلما بنوا شيئاً يهدم عليهم، فانتبهت منزعجة، فقصت عليهم الرؤيا، فامتنعوا من البنيان، وحوطوا على قبره بحجارة تمنع الدوابَ وغيرها.

وجملة القول إن الإمام النووي رحمه الله تمسك بدينه وسنة رسوله فوق الأرض حياً، وفي باطن الأرض ميتاً، وهذا ما قال فيهم الباري سبحانه: ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا**﴾[1]. وصدق قول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه علي: «من عمل بسنتي أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»[2].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢٣.

(٢) رواه الترمذي بمثله في (٣٩) كتاب العلم ـ (١٦) باب ما جاء في الأخذ بالسنّة واجتناب البدع ـ حديث رقم: (٢٦٧٨).

فهرس الكتاب

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :